

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

1985



جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

1985



جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الفلسفة

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة
اعداد الطالب: فيجل الهاشمي
تحت عنوان

التأسيس الأخلاقي للحضارة

عند القديس أوغسطين

د. بورنان خيرة رئيسا

أ. مزواد نسيبة مشرفا ومقررا

د. لصقع الربيع ممتحنا

السنة الجامعية: 2017/2016

إلى من وزع ورد الحنين، ومدَّ يديه إلى الآخرين، إلى
نبع الحنان، وملجأ الأمان:

أمي الحنون.

إلى فخري وذخري، ومسندي طول عمري:
أبي العزيز.

إلى إخوتي وأخواتي.

وإهداء خاص إلى أخي الذي لم تلده أمي: قماط سعد.

كما أهدي هذا العمل المتواضع إلى كل من عرفته وعرفني

من قريب أو من بعيد

شُكْرٌ وَامْتِنَانٌ

الحمد لله حمد الشَّاكِرِينَ العَارِفِينَ، الحمد لله الَّذِي وَقَّعَنِي إِلَى إِتْمَامِ هَذَا
العَمَلِ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ أَمٌّ بَعْدُ:

أشكر الأستاذة الكريمة مزواد نسبية، على قبولها الاشراف عليا لإنجاز هذا العمل، كما
أشكرها على صبرها الطويل على أخطائي المتكررة، وعلى توجيهاتها
ودعمها... جزاك الله عني كل خير أستاذة نسبية مزواد.

شكري الخالص الى كافة طاقم قسم الفلسفة، من إداريين وأساتذة، وشكر
خاص الى الأستاذتين محكدود ربعة وبورنان خيرة.

جزيل الشكر والامتنان الى كافة زملاء الدراسة، وأخص بالذكر سعد قماط، بلال

شبيرة، حسينة نويقة، عيشة بقة وانصاف دبش...

كما أشكر زملاء الإقامة وكل من قطن معي في الغرف L10-L9

D23-A74

جَزَاكُمُ اللهُ خَيْرًا.....شُكْرًا

فيجبل الحاسمي

مقدمة

مقدمة

الفلسفة المسيحية هي تلك الحقبة الزمنية الممثلة للحياة الفكرية في أوروبا في العصر الوسيط، حيث امتزج في هذه الفترة كل من الفلسفة اليونانية مع الديانة المسيحية وفق ما يناسب جوانب الحياة الانسانية، وقد كان لأباء الكنيسة قصب السبق في مزج ما اطلعوا عليه من معارف يونانية مع تعاليم الايمان المسيحي، لينتجوا بذلك انساقا مختلفة من التفكير، تتفاوت في السهولة والتعقيد، في شتى مجالات الحياة، ولعل الجانب الأخلاقي قد نال نصيب الأسد من نتاجهم الفكري. ولطالما اهتم رجال المسيحية بالجانب الأخلاقي المرتبط أساسا بالكتاب المقدس، هذا الأخير يعتبرونه مصدر القيم الاخلاقية وداعمها، ثم ان هذه القيم الأخلاقية هي التي ركزوا عليها للنهوض بمجتمعاتهم وبحضارتهم.

يعد القديس أوغسطين من أهم المفكرين الممثلين للفكر الأخلاقي في فترة عصر الآباء، التي تعد بدايات العصر الوسيط، حيث تعد نظريته الأخلاقية، في السياسة والاجتماع من أهم النظريات التي استطاعت تفسير كثير من المفاهيم الغامضة في عهده. كما أننا نجد أنه قد طبق نظريته الأخلاقية على كافة الجوانب الإنسانية والمعرفية، ولقد ركزت في هذا البحث على علاقة الفكر الأخلاقي الأوغسطيني بالجانب الحضاري محاولا الإجابة على إشكالية رئيسية تمثلت في:

هل يمكن للمنظومة الأخلاقية أن تكون سببا في قيام حضارة ما وسقوط أخرى؟

وبما ان فكر القديس أوغسطين متشعب وجب علينا تحديد جوانب هذه الدراسة بمجموعة من المشكلات الفرعية التي سنتير لنا الطريق لتقفي الاثار المعرفية للإجابة على هذه الإشكالية الرئيسية وتمثلت الإشكالات الفرعية في جملة التساؤلات التالية: ما هي أهم الأفكار الأخلاقية للقديس أوغسطين؟ كيف بين القديس كل من: نشأة الدولة. مقوماتها، ومصادر السلطة فيها؟ كيف تقوم الحضارات وكيف تسقط؟ وأخيرا ما هو سبيل البشرية الى السلام الابدي؟

ويمكن ان أجمل اهم الدوافع التي دعيتني الى اختيار هذا الموضوع الى أربع دوافع رئيسية وهي:

- افتقار المكتبة الجزائرية للكتابات حول القديس أوغسطين، وعدم اهتمام الدارسين الجزائريين به، بالرغم من كونه جزائري، هو ما جعلني أكتب حوله بغرض لفت الانتباه الى أحد أكبر الشخصيات في الفكر الجزائري، بل حتى في الشمال الافريقي ككل.

- الدراسات العربية التي غالبا ما تصطبغ بالصبغة الإسلامية، تكون دائما محففة في حق الفلاسفة اللاهوتيين وخاصة اللاهوتيين منهم، فتحيد عن الموضوعية في دراسة مثل هذه الشخصيات. والقديس أوغسطين من أهم أولئك الفلاسفة الذين تعرضوا لمثل هذا الاجحاف من جانب الدارسين العرب والمسلمين، لذلك ارتأيت ان ادرس بعض من كتاباته دراسة بعيدة عن التعصب سواء من الناحية الذاتية أو الموضوعية.

- الرغبة الشخصية في دراسة القديس أوغسطين، فبعد قراءتي لبعض كتبه، وبعض شروحاتها في سنواتي الدراسية، رأيت انها تحمل في طياتها نسقا فكريا متكاملا يكاد يحيط بجميع جوانب الحياة الإنساني، لذلك تكونت لي إرادة في ان اكتب عنه في يوم من الأيام.

ولأجل الإجابة على الإشكالية الرئيسة، واشكالاتها الفرعية ارتأيت أن اقسم هذا البحث الى ثلاثة فصول، إضافة الى مقدمة وخاتمة.

الفصل الأول، يعالج الفكر الأخلاقي عند القديس أوغسطين، وارتأيت ان أقسمه الى ثلاثة مباحث، سردت في المبحث الأول نبذة مختصرة عن حياة القديس أوغسطين ومن ثم أهم مصادره الفكرية وأهم مؤلفاته. أما المبحث الثاني فقد تطرقت فيه الى تأصيل لفكرة الخطيئة عند القديس أوغسطين، ثم أصل الشرور في الطبيعة والبشر، محاولا ان أرفع الستار عن الغموض الذي كان يكتنف هذه الفكرة عنده. ثم مبحث ثالث تطرقت فيه الى عنصر آخر من عناصر الفلسفة الأخلاقية عند القديس أوغسطين وهو الفضيلة، في محاولة لإبراز أهم الفضائل عنده.

الفصل الثاني جاء تحت عنوان الفكر السياسي للقديس أوغسطين، وقد قسّمته هو الآخر الى ثلاثة مباحث، تطرقت في المبحث الأول الى كيفية تشكل المجتمع، وتكون الشعب، ومن ثم كيفية نشوء الدولة. وتطرقت في المبحث الثاني الى أهم مقومات الدولة، فتحدثت عن جوانب كثيرة منها العدالة والقانون واللغة والملكية والتملك والرق والعبودية. أما المبحث الثالث فقد حاولت فيه تبيين مصادر السلطة في الدولة، وقد عاجلت فيه موضوع السلطات الإلهية، ثم السلطات الزمنية، كما تحدثت فيه على العلاقة بين الدولة والكنيسة.

الفصل الثالث جاء بعنوان الاخلاق والحضارة، حاولت فيه تطبيق الدراسة السابقة في الفصلين الأول والثاني، على نظرة القديس أوغسطين للحضارة، وقد قسمت هذا الفصل أيضا الى ثلاثة مباحث، تناولت في المبحث الأول أسباب قيام الحضارة وازدهارها اما في المبحث الثاني فقد تناولت أسباب سقوط الحضارة واندثارها بالنسبة للمنظور الأوغسطيني وارتأيت ان اختم هذا الفصل بمبحث ثالث، تطرقت فيه الى الصراع كحتمية ضرورية لبلوغ السلام الابددي.

وختمت البحث بخاتمة ضمنيتها اهم النتائج التي توصلت اليها من عناصر البحث إضافة الى بعض التوصيات التي رأيت انها هامة ليؤخذ بها في المستقبل.

اعتمدت في هذا البحث على منهج رئيسي هو: المنهج التحليلي، الذي يظهر جليا في كافة فصول هذا البحث، وذلك اثناء تحليل كتابات القديس أوغسطين الاصلية، وبعض المقولات في المراجع، كما اعتمدته في تحليل وتفكيك، الأفكار ومن ثم إعادة بنائها وتركيبها.

وقد استعملت في هذا البحث مجموعة من المصادر، أهمها وأكثرها استعمالا " كتاب الاعترافات " وكتاب " مدينة الله بأجزائه الثلاثة " وكتاب " خواطر فيلسوف في الحياة الروحية".

اما المراجع فقد انقسمت نوعين رئيسيين هما: مراجع أساسية تمثلت في كتاب "أوغسطينوس للدكتور علي زيعور" وكتاب " لاهوت التاريخ لزينب لخضيري". ومراجع ثانوية نذكر منا "موسوعة الفلسفة لعبد الرحمان بدوي" وكتاب " الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط ليوستف كرم".

ومن ابرز الصعوبات التي واجهتني:

● تشعب الفكر الأوغسطيني، وصعوبة الأسلوب الذي يكتب به، فرضا علي بذل جهد مضاعف في جمع المصادر وتحليلها.

● جملة التناقضات الفكرية في المراجع المؤلفة حول القديس أوغسطين، وهذا ناتج عن الاختلافات الفكرية والأيدولوجية للكتّاب، هذا الامر بدوره فرض علي بذل جهد أكبر لمحاولة التوفيق بين الكتابات والآراء التي تبناها الكتاب مع ما يخدم موضوع هذا البحث.

● قلّت الدراسات القبلية.

الفصل الأول: الأخلاق عند القديس أوغسطين

المبحث الأول: نبذة عن حياة القديس أوغسطين

المبحث الثاني: الخطيئة وأصل الشر

المبحث الثالث: الفضيلة عند القديس أوغسطين

الفصل الأول: الأخلاق عند القديس أوغسطين

تميز العصر الوسيط ببروز أنماط جديدة من التفكير الإنساني في شتى المجالات، وخاصة في المجال الأخلاقي، وذلك لظهور مصادر جديدة للتفكير تمثلت في الدين المسيحي، وتعد فترة الآباء المسيحيين بداية هذا النمط الجديد من التفكير، إذ دجت الأفكار القديمة مع أفكار الدين المسيحي، فنتج عن ذلك مزيج جديد من القيم الأخلاقية، التي استدعت الكثير من الدراسة والتحليل من مفكري ذلك العهد، ومن أهم المفكرين الذين اشتغلوا بهذه الدراسات نجد القديس أوغسطين، الذي يعد من أهم المفكرين الذين دمجوا الأفكار الأخلاقية القديمة مع أفكار الكتاب المقدس، لينتج بذلك فكر أخلاقي محكم على درجات متفاوتة من السهولة والتعقيد، ثم يطبقه على كافة مجالات الحياة.

إن الفكر الأخلاقي للقديس أوغسطين، فكر متشعب تشعب مصادره المعرفية، ومرجعياته الفكرية، حيث نجده قد تطرق إلى كافة المسائل الأخلاقية، إلا أننا سنحاول في هذا الفصل، التركيز على أهم العناصر المعرفية الممثلة لفكره الأخلاقي، محاولين بذلك الإجابة على التساؤلات التالية: كيف أصّل القديس أوغسطين لفكرة الخطيئة الأولى لآدم؟ ولماذا شمل حكمها كل البشرية فيما بعد؟ ما هو أصل الشرور في العالم؟ وكيف نظر القديس أوغسطين إلى فكرة الفضيلة بناء على مرجعيته الأخلاقية؟ لكن في بداية كل ذلك يجدر بنا أن نعرج على تعريف هذه الشخصية التي مثلت الفكر المسيحي في العصر الوسيط، محاولين التركيز على مسيرة حياته، ومبرزين أهم مراحل ومصادره الفكرية، وأهم مؤلفاته.

المبحث الأول: نبذة عن حياة القديس أوغسطين

أولاً: حياته

أسمه "أوروليوس أوغسطينوس ويكنى القديس أوغسطين، ولد في 13 تشرين الثاني-نوفمبر-354م في شمال افريقيا في مقاطعة نوميديا، في بلدة تدعى **طاغشطا** وهي سوق أهراس في الجزائرية حالياً، كان أبوه **باتريكيوس** رجلاً فقيراً، من مستوى متواضع من أعيان طاغشطا، وأمه **القديسة مونيكا**، مسيحية مؤمنة كان لها فضل السبق في جعل أوغسطين يكرس حياته للدين المسيحي"⁽¹⁾، ويقول القديس أوغسطين عن أمه: "فإنني لازلت أذكر تأثير جوابك علي بلسان أمي اليقظي وهدوئها التام لقاء شرحي الحربي الخاطئ وسرعتها في ادراك ما عييت عنه..."⁽²⁾، ويقول عن مساعدة أمه له في العودة الى الدين المسيحي: "أمّا أمي التي ولدتني بالجسد فقد كانت تتجول في ضواحي بابل المذكورة رغم نجاحها من وسطها وتدعوني الى حياة أعف وأظهر..."⁽³⁾.

انتقل من مسقط رأسه الى مادور أين بدأ دراسته الا أنه لم يكن ميالاً لها بل كان ميالاً محباً للهِو واللعب ونشوة الانتصارات يقول: "ثم ألحقوني بالمدرسة لأتعلم ولكن يال شقائي وتعاستي فلم اعرف سبيلاً للاستفادة منها فقد كنت بليداً في الدراسة ونلت ضرباً مبرحاً... ولكني عصيت ليس لأن لدي خيار. ولكن السبب ولعي باللعب والهِو ونشوة الانتصار في المباريات، واذن يستهويها سماع الاساطير، وعينان يلعب امامهما استعراضات الكبار والعابهم"⁽⁴⁾. لكن بالرغم من ذلك فقد أرغمه والده على الدراسة ليتعلم اليونانية واللاتينية وفن الخطابة في مادور. تم انقطع عن الدراسة مدة عام كامل وذلك حين بلغ سن السادسة عشرة من عمره بسبب ظروفه المادية

(1)- علي زيعور: أوغسطينوس، (دار اقرأ، بيروت، ط1، 1983)، ص: 100.

(2)- القديس أوغسطين: الاعترافات، تر: الخور أسقف يوحنا الحلو، (دار المشرق، بيروت، ط4، 1991)، ص: 55.

(3)- المصدر نفسه، ص: 33.

(4)- القديس أوغسطين: الاعترافات، تر: برتي شاكرا، (دار النشر الأسقفية، القاهرة، ط5، 2005)، ص: 14-15.

فيقول عن ذلك العام في اعترافاته: " فانغمست في شهوتي وضللت وتناثرت اشلائي، هويت في بئر الدعارة"⁽¹⁾؛ اي أنه صار مولعا بالشهوات والفسق والدعارة خلال عام التيه.

ولما بلغ القديس أوغسطين عامه السابع عشر انتقل الى قرطاجة بفضل صديق الاسرة محب الادب والفنون رومانوس. اين تعلم البلاغة والبيان وفقا لرغبة ابيه، الا أنه لم ينسى حبه للهو واللعب فكان يتردد على المسارح والعباب السيرك⁽²⁾. وكان لا يزال غارقا في بحار الشهوات والفسق، وبالرغم من ذلك تفوق في مدرسة الخطابة كما كان محبا للمطالعة ميالا للكتب الصعبة فقرأ كتاب 'هوزتنسيوس' لشيرون* الذي تعرف من خلاله على الفلسفة يقول: " وفي غمرة هذه الاحداث كلها وفي هذه الفترة الغير مستقرة في حياتي رحلت ادرس كتب الفصاحة رغبة في شهرة لعينة وطموح محتمل ونشوة بشرية باطلة. وفي اثناء الدراسة المعتادة وقعت عيني على كتاب هوزتنسيوس لشيرون الذي نالت خطبه، وليس قلبه اعجاب الناس كافة يحض هذا الكتاب على دراسة الفلسفة، وقد بدل نظريتي لبعض الاشياء.... ويرغبة مولعة اشتهيت جدا بحور الحكمة. ثم شرعت أنحض لأعود اليك"⁽³⁾. هذا الكتاب ساعد أوغسطين في التنبه ومحاوله مطالعة الكتاب المقدس الا أنه يقول إنه لم يجده ذا قيمة ولا يستحق المطالعة "قررت أن اسمح لنفسي بمطالعة الكتاب المقدس لأرى كيف يبدو...بدا لي أنه لا يستحق حتى مقارنته بكتابات تولى العظيمة"⁽⁴⁾.

(1)- القديس أوغسطين: الاعترافات، تر: برتي شاكر، مصدر سابق، ص: 25.

(2)- نسيبة مزواد: فلسفة الحضارة عند القديس أوغسطين، (رسالة لنيل شهادة ماجستير في فلسفة الحضارة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012)، ص: 3.

* شيرون (106. 43 ق.م): هو ماركوس توليوس كيكرو، أما شيرون فهو تعريب لصيغة اسمه بالإيطالية، خطيب وسياسي وأديب روماني كبير، بل هو أشهر خطباء روما وأعظم كتاب اللغة اللاتينية الكلاسيكية. ولد في بلدة أرينيوم الإيطالية جنوب شرقي روما في أسرة ثرية من طبقة النبلاء، وجاء إلى روما صغيراً وتلقى تعليماً ممتازاً في البلاغة والفلسفة والقانون واللغة الإغريقية، التي صار يجيدها كأحد أبنائها. عمل بالمحاماة مما ساهم في ايصاله الى مناصب سياسية عالية جدا، فعين خازنا ورئيسا لبلدية ايديليس، ثم شغل منصب القاضي في برينور، كما عين قنصلا بالرغم من معارضة كثير من النبلاء الرومان...ينظر ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء 9 تر: محمد بدران، (القاهرة 1972)، ص: 314.

(3)- القديس أوغسطين: المصدر سابق، ص: 38.

(4)- المصدر نفسه، ص: 39.

وفي التاسعة عشرة من عمره اعتنق القديس أوغسطين المذهب المانوي*، فكان أن تبني آراءهم وافكارهم، ولم يكتفي بذلك فقط، بل ساعد في نشر المذهب والاشهار له حين دعى اليه بين طلابه وبين الناس، وساعده في ذلك اتقانه فن الخطابة والاقناع، ومنصبه كمدرس لها. وظل القديس أوغسطين وفيها لأفكار المانوية ومخلصا لها الى أن سمع بقدوم كبير المانويين **فوستوس** الى قرطاجة، هذا الأخير الذي كان يتطلع شوقا الى مقابلة ومناظرته والاستفادة من ادبه وفنه وعلمه، الا أن أوغسطين قد خابت كل آماله واحلامه حين حاوره وناقشه يقول: " ولما كنت اتطلع الى رأيت ذلك الشخص واتوق لها منذ زمان سعدت بالفعل بحسن سلوكه وحسه في المناقشة...ولكنني وجدته جاهلا تماما بالفنون الحرة، وحتى قواعد اللغة التي يجيدها اتضح أن معرفته بها معرفة عادية...وبعدما اتضح أنه يجهل مثل هذه العلوم التي تخيلت أنه بارع فيها، بدأت لا اعول عليه في تفسير الامور التي طالما حيرتني كثيرا...ومن ثم أنفض حماسي لكتابات المانشيين ولم اعد آمل في معلمهم شيئا ذي قيمة بعد أن رأيت أن اشهرهم لم يستطع أن يجاوبني عما يجيرني"⁽¹⁾. وفي تلك الاثناء، طلب اهالي ميلانو من والي روما أن يرسل إليهم استاذًا للخطابة على نفقة الخزانة العامة، فتقدم القديس أوغسطين بطلب الى هذه الوظيفة بكل شغف، ذلك لأنه قد يؤس من المانوية، كم سئم من طلاب قرطاجة، لأنه رأى أنهم " يتفقون فيما بينهم ليتركوا استاذًا ما فجأة ثم يذهبون الى غيره لكيلا يدفعوا له اجرتهم كم أبغضهم قلي..."⁽²⁾. ليقبل طلبه بدعم من اساتذة المانشيين في قرطاجة وينتقل الى ميلانو.

* مذهب ماني الفارسي الذي عاش في القرن الثالث للميلاد، عمل على التوفيق بين المسيحية والزرادشتية والبوذية واليهودية، وهي من المذاهب الغنوصية المسيحية تقول بثنائية الاله، إله الخير واله الشر، وتقوم على مبدأي النور والظلمة، وهما مبدآن متنازعا في العالم الى الابد.... ينظر جميل صليبا: المعجم

الفلسفي، (دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، 1982، ج2)، ص: 314.

(1)- القديس أوغسطين: الاعترافات، تر: بريتي شاكر، مصدر سابق ص: 222.

(2)- المصدر نفسه، ص ص: 80-81.

في ميلانو تعرف القديس أوغسطين على أكبر شخصية أثرت في حياته وهو القديس أمبرواز* الذي شكل نقطة انعطاف في حياته وخاصة الروحية منها، كما ساعده على دحض آراء المانويين ودراسة بعض الافكار الفلسفية الأخرى، يقول: "درست افكار وآراء معظم الفلاسفة لأتوصل الى أكثرها ترجيحاً"⁽¹⁾، هذه الدراسات التي تكلم عنها القديس أوغسطين قادتته الى التأثر بالاكاديميين الذين ساهموا بدورهم في مساعدته على ترك ودحض مذهب المانويين، حيث صار يشك في كل شيء وهو الشك الذي قاده في الاخير الى الدين المسيحي يقول: "عرضت عن معتقداتي السابقة واتجهت الى الايمان المسيحي الذي وجدت سبيله متواضعا وامينا"⁽²⁾، في هذه المرحلة لم يكن القديس أوغسطين قد اقتنع بالإيمان المسيحي بعد، لذلك نجده قد اتجه الى الكتب الافلاطونية محاولا ايجاد اجابات لكثير من التساؤلات التي لاتزال عالقة في ذهنه، مثل اصل الخير والشر، وطبيعة الله، وكيفيه ادراك المصنوعات غير المنظورة، "بعد قراءتي في الكتب الأفلاطونية وتعلمي أن ابحت عن الحق الروحي رأيت أن امورك غير المنظورة... مدركة بالمصنوعات"⁽³⁾، هذه الحقائق الروحية التي توصل اليها أوغسطين من خلال الكتب الافلاطونية زادت شغفه لدراسة الكتاب المقدس وخاصة رسائل بولس "...ومن ثم تناولت بشغف شديد اسفار كتابك المقدس وعلى الاخص كتابات بولس الرسول وبالتالي اختفى تماما كل ماكنت اجده من صعوبات خاصة بإحساس بتناقض اقواله او تناقض خطبه مع اقوال الناموس وظهرت لي وجدت كلمتك الطاهرة... ثم وجدت أن كل ما قراته في الكتب الاخرى وجدته هنا بين تسيبحات نعمتك"⁽⁴⁾. كل هذا التغيير قد حدث له حين بلغ سن الثانية والثلاثين، حيث كان قد خلص الى كافة اجاباته الذهنية التي كان يبتغيها من

* اورولبيوس امبروسيو: كان قديسا وحاكما واسقفا في ميلان، يعد من أحد الرموز المؤثرة في قيام الكنيسة وتسيدها في روما، ولد في حوالي عام 340م لعائلة رومانية مسيحية في تريير، تعلم الادب والقانون والبلاغة، كان ابوه حاكم بالذ الغال فرنسا حاليا توفي القديس أمبرواز حوالي عام 397م.

ينظر: جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 2006)، ص: 93-94.

(1)- القديس أوغسطين: الاعترافات، تر: بريي شاكر، مصدر سابق، ص: 82.

(2)- المصدر نفسه، ص: 88.

(3)- المصدر نفسه، ص: 122.

(4)- المصدر نفسه، ص: 122.

بحته الطويل. ولكنه علق في مشاكل الجسد فكيف له ان يخلص من شرك الشهوات والملذات وخاصة شهوة النساء بعد ان تحرر ذهنه من الشك والريب؟

ظل القديس أوغسطين زمنا ليس بالقليل مشتمت الرجل مقطوع النفس تتنازعه شخصيتان، الاولى تمثلت في شخص أوغسطين الفتى الطائش اللاهبي محب اللعب والمجون، والثانية تمثلت في القديس أوغسطين المؤمن الزاهد في الله، ويقول في حاله هاته: "دخلت في حرب مع نفسي وهكذا كانت نفسي ممزقة... نتيجة لذلك مرضت نفسي مرضا شديدا... تقلبت وتململت في قيودي حتى انكسرت ولكنها لم تنكسر كلية فمازلت ممسوكا ببعضها... كانت حماقة الحماقات باطل الاباطيل متمثلا في عشيقاتي اللاتي تمسكن بي، فقد كن يمسكن بطرف ثوبي ويهمسن لي برفق: هل ستتركنا؟ وهل من هذه اللحظة لا نكون بعد معك الى الابد؟ وهل من هذه اللحظة والى الابد لم يعد فعل هذا او ذاك شرعيا لك بعد؟"⁽¹⁾. أصبح أوغسطين ميالا للعزلة كثير التضرع والبكاء بسبب مرارة وقسوة الصراع الذي كان يقاسيه، وبينما هو كذلك يقول: "سمعت صوتا من المنزل المجاور... يصيح ويكرر، قوله هذا باستمرار تناولها واقراها... تناولها واقراها... توقف سيل الدموع مني ونهضت لأني فهمت ان هذا لا يمكن الا ان يكون سوى امر من الله لأفتح الكتاب المقدس واقرا أول فقرة تصادفي...! لا بالبطر والسكر، لا بالمضاجع والعهر، لا بالخصام والحسد. بل البسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدابير للجسد الاجل الشهوات (روم 13:13، 14). ولم اعد في حاجة لأقرأ المزيد لأني بمجرد انتهائي من قراءة هذه الآية حتى أشرق شعاع نور قلبي، وانقشع كل ما لي من ظلام الشكوك... وبمجرد أنك غيرتني ورددتني اليك حتى إني وجدت نفسي لا اطلب زوجة، ولا اي آمال في هذا العالم"⁽²⁾. هنا وفي هذه اللحظة بالضبط استطاع القديس أوغسطين الحصول على التفرد الروحي، لقد وهب نفسه الى الله ليبدأ مباشرة مظاهر الزهد والتقوى والايان، ويتنازل عن منصبه كمدرس

(1) - القديس أوغسطين: الاعترافات، تر: بريي شاكر، مصدر سابق، ص ص: 141-142.

(2) - المصدر نفسه، ص: 143-144.

للخطابة في ميلانو. ولسرعة وشدة ما ظهر عليه من الإيمان والتقوى سرعان ما عمد كاهنا هو وصديقه البيوس على يد مثله الاعلى القديس أمبرواز سنة 387م.

قرر القديس أوغسطين العودة الى مسقط راسه مع صديقه وابنه ديدوات* وأمه التي توفيت في الطريق الى أوسطيا وهو ابن 56 سنة. ليصل الى طاغشطا ويمكث فيها ككاهن الى غاية 390م، ثم عمد أسقفا "بهبو- وهي عنابة في الجزائر حاليا- سنة 396م ليموت فيها سنة 430م بسبب المرض"⁽¹⁾.

كان القديس أوغسطين مثالا حقيقيا للباحث عن الحقيقة فقد كان مذ وعيه لذاته شغوفًا مجدا في البحث عنها يقول: "آه الحقيقة، الحقيقة ولا شيء سواها كم كانت اعماق نفسي حتى النخاع تلهث لتدركها"⁽²⁾. حيث بحث في كل اتجاه ومذهب ولا يهمه سوى الوصول الى الحقيقة اين كانت". فقد سعدت بالتحريض والنهوض والاثارة لكي أحب وامتلك واعتنق لا هذه الطائفة ولا تلك بل الحكمة ذاتها أيا كانت"⁽³⁾. قرأ كتاب الفئات العشرة لأرسطو وفهمه بشكل واضح ولم يتجاوز عمره العشرين سنة، على عكس زملائه الذين لم يفهموه ويستوعبوه، وكذلك اساتذة قرطاجة وجدوه صعب الشرح عسير الفهم اذ "كانوا يقولون انهم بالكاد استطاعوا فهمه وبمساعدة بعض المعلمين المقتردين لم يكتفوا بشرح ما جاء بالكتاب شفهيًا، بل شرحوا اشياء كثيرة من مضمونه على الرمال لتبسيطها، ورغم هذا لم يزيدوا شيئًا على ما كنت قد فهمته وحدي دون عون من أحد"⁽⁴⁾. كما كان محب للكتب كثير المطالعة، فطالع كتب الخطابة والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى والفنون الحرة، يقول في اعترافاته: "لقد استطعت ان استوعب وحدي دون مساعدة معلم ودون صعوبة كبيرة، كل ما كتب عن الخطابة والمنطق والهندسة والموسيقى والرياضيات، ولم اعلم ان هذه الفنون يصعب فهمها حتى على

* هو الابن الغير الشرعي للقديس أوغسطين، وهو الذي اعتمد عليه في محاوره المعلم ... ينظر القديس أوغسطين: المعلم، تر: حسن حنفي (مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ط2، 1978)، ص: 10.

(1)- علي زيعور، مرجع سابق، ص: 101.

(2)- القديس أوغسطين: الاعترافات، تر: برتي شاكرا، مصدر سابق، ص: 40.

(3)- المصدر نفسه، ص: 39.

(4)- المصدر نفسه، ص: 65.

المتخصصين، والموهوبين الا عندما شرعت في شرحها للآخرين واكتشفت ان اكثرهم إصغاء وتأنيا هو اكثرهم استيعاباً⁽¹⁾. ولعل ما ساعده في ذلك كما يقول: "سرعة الاستيعاب وسرعة التميز"⁽²⁾. وحب الشهرة والمنافسة مع أقرانه.

ثانيا: محطاته الفكرية وأهم مؤلفاته

الديانة المسيحية: تتمثل في النصوص الدينية باعتبار أمه تقية متمسكة بتعاليم دينها، وتمثل هذه المحطة بداية الدورة المعرفية ونهايتها في فكر القديس أوغسطين.

المانوية: التي اعتنقها طوال تسع سنوات املا منه في ان يجد اجابات لما كان يجول في خاطره من تساؤلات، وكذا منهج المانوية الذي كان يتماشى مع شهواته ورغباته.

الأفلاطونية المحدثة: تتمثل في تفسيره للعالم، وتفسيره للعقل، وحقيقة وجود الله وتفسيره للنفس، وغيرها.

الفلسفة اليونانية: لما كان لديه من وعي وفضول وحب للتطلع في الفلسفات الإنسانية للبحث عن الحقيقة.

كما ترك القديس أوغسطين مؤلفات كثيرة تجاوزت المئة كتاب، والخمس مائة موعظة ومائة وثلاثة عشر مطولة ضاع قسم كبير منها، وهي موضوعة باللاتينية اشتهرت بالمثانة والبلاغة وقوة البيان وتنقسم مؤلفاته الى عدة اقسام، اهمها القسم الديني الذي يطغى على سائرهما ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

(ضد الفلاسفة الأكاديميين): وضع هذا الكتاب لبحث مسألة اليقين.

(الاعترافات 401م): مكون من 13 مقالة كتب فيها سيرة حياته ومسار فكره وطريقة اهتدائه.

كتب في الرد على المانويين نذكر منها: (أخلاق الكنيسة الكاثوليكية وأخلاق المانويين)، (في سفر التكوين ردا على المانويين)، (في النفسين)، (الرد على أدامنث تلميذ ماني) و(الرد على فوستوس).

(1) - القديس أوغسطين: الاعترافات، تر: بريتي شاكر، مصدر سابق، ص: 65-66.

(2) - المصدر نفسه، ص: 65.

كتب وضعها للرد على بدع المسيحية نذكر منها: (الرد على البيلاجيين)، (الرد على الدوناتيين)، (الرد على رسالة برمينيان)، (الرد على رسالة باتيليون الدوناتى)، (في العبودية).

(مدينة الله 412-416): هذا المؤلف الضخم يتكون من ثلاثة اجزاء افرده القديس أوغسطين للدفاع عن الديانة المسيحية وذلك حين اتهمت بانها هي السبب في اغضاب آلهة روما مما ادى الى خرابها على يد البرابرة. كما حمل هذا المؤلف اغلب آرائه السياسية والاجتماعية، آراؤه في التاريخ وغيرها.

ومؤلفات عقائدية خالصة نذكر أهمها: "(في الثالث) وكتاب (العقيدة المسيحية) و(مراسلات مع القديس جيروم)"⁽¹⁾.

وهناك كتب أخرى متفرقة نذكر من بينها: "(في البدع)، (في الموسيقى)، (في اللطف وحرية الإرادة)، (في الطبيعة)"⁽²⁾ ...

إذن كانت حياة القديس أوغسطين في مجملها سجلا روحيا عميقا، مما دعاه الى المضي في رحلة طويلة في البحث عن الخلاص والحقيقة حيثما وجدها ليهدئ آلام نفسه ويشفي غليل افكاره، حيث كانت بداياته مع شيشرون الذي أشعل نار حب الحكمة والمعرفة في قلبه، فتنتقل بين مختلف المذاهب الفلسفية وأتقن اغلبها، وأفحم اساتذتها، كلما حاور وناظر واحدا منهم. ثم ان هذا التنقل بين المذاهب والتعمق فيها دعاه الى العودة الى الكتاب المقدس لعله يشفي غليله ويرضي شغفه، لأن تلك المذاهب لم تكن قد أراحت نفسه من همها وخاصة الرغبات الجسدية التي لم يرحه منها الا ترانيم الكتاب المقدس الذي قاده الى الله، ليجد في الله اجابات لكل تساؤلاته عن طريق تأملاته العقلية، فنذر ان يحافظ عليه من خلال الايمان ويحافظ على ايمانه من خلال العقل.

فاذا كان القديس أوغسطين فيلسوفا مسيحيا، وكاهنا مؤمنا فما هي فلسفته الاخلاقية؟ وفيما تمثلت فكرة

الخطيئة عنده؟ وكيف دخلت الى العالم؟ وما هو أصل الشر في هذا العالم عنده؟

(1)- علي زيعور: مرجع سابق، ص: 109.

(2)- عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، (المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 1984، ج1)، ص: 249.

المبحث الثاني: الخطيئة وأصل الشر

أولاً: الخطيئة

تجمع كل الكتب السماوية والتاريخية منها ان أول خطيئة في الخليقة كانت خطيئة ابليس لما عصى الله حين قال لا وتمرده عليه. فقد جاء "أن ابليس قد جعله الله على ملك الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن، وانما سمو الجن لأنهم خزنة الجنة، وكان ابليس مع ملكه خازنا، فوقع في صدره انما اعطاني الله هذا لمزية لي على الملائكة"⁽¹⁾ فكانت هذه اول خطيئة لإبليس وهي الكبر والغرور بالمنصب والجاه فقال في نفسه "اصعد الى السماوات. ارفع كرسي فوق كواكب الله. اجلس فوق جبل الاجتماع. في اقاصي الشمال. اصعد فوق مرتفعات السحاب. اصير مثل العلي"⁽²⁾. ثم إن الله قد اطلع على ما في قلب ابليس من مكر، "وكان قد حسن خلقه وشرفه وملكه على سماء الدنيا والأرض فأستكبر على ربه، وأدعى الربوبية ودعا من كان تحت يده الى عبادته"⁽³⁾ فلم علم الله منه ذلك وانه قد عزم عليه "مسخه شيطانا رجيمًا، وشوه خلقه، وسلبه ما كان خوله، ولعنه وطرده من السماوات في العاجل"⁽⁴⁾ وقال له الرب العلي: "كيف سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبح؟ كيف قطعت الى الأرض يا قاهر الأمم؟ لكنك انحدرت الى الهاوية الى أسفل الجب"⁽⁵⁾. وهكذا وقعت اول خطيئة في الملكوت العلية، وتجمع اغلب الكتب السماوية والتاريخية على ان اول خطيئتين في الكون هما الكبر والطمع، فالكبر لما أستكبر ابليس على الله وعلى عبادته، والطمع حينما طمع ابليس في أكثر مما يملك، فقد طمع في مشاركة الله في الملك والعبادة. إلا ان الخطيئة التي نحن بصدد دراستها هي الخطيئة البشرية الأولى وكيف وقعت؟ ثم كيف شملت جميع الجنس البشري؟

(1)- أبو الفداء الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، (مكتبة المعارف، بيروت، دط، 1990، ج1)، ص: 55.

(2)- الكتاب المقدس: [إشعيا 14: 13-14].

(3)- أبو الحسن علي ابن محمد ابن الاثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: ابي الفداء عبد الله القاضي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987، ج1)، ص23.

(4)- المرجع نفسه، ص: 23.

(5)- الكتاب المقدس: [إشعيا 14: 13-14].

ذكر في الكتاب المقدس في العهد القديم منه: "وأوصى الرب الله آدم قائلاً: "من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت"⁽¹⁾. هذه هي بداية الحديث في العهد القديم عن الخطيئة، فالله تعالى خلق آدم ولم يعطه الحق في الأكل من شجرة الخير والشر.....ويروي العهد القديم بعد ذلك أن الحية تمكنت من خداع حواء وأوقعتها هي وزوجها آدم في المحذور فأكلا من الشجرة المحرمة: "فأرت المرأة ان الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأعطت رجلها معها أيضاً فأكل. فانفتحت اعينهما.وعلما انهما عريانان. فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر"⁽²⁾ ثم تحدث العهد القديم بعد ذلك أن جميع الناس ضلوا وفسدوا بسبب الخطيئة كما جاء في سفر المزامير: " الكل قد زاغوا معاً، فسدوا. ليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد"⁽³⁾. وبهذا ينسب العهد القديم الضلال والفساد إلى جميع الناس بما فيهم الرسل والأنبياء. وبذلك "يعتبر العهد القديم أن كل خطيئة هي ضد الله"⁽⁴⁾.

كما تحدث العهد القديم عن أنواع الخطايا ولم يحصرها فقط في الجوارح مثل خطايا اللسان واليد والعين والرجل وغيرها بل جعل القلب هو المحرك لهذه الجوارح كما جاء في سفر المثل: "فوق كل تحفظ أحفظ قلبك لان منه مخارج الحياة"⁽⁵⁾.

كما يقرر العهد القديم أن الخاطئ إذا رجع عن خطيئته وألتزم بأوامر الله وفرائضه يكون ذلك بمثابة الحياة له وتغفر له خطايا، كما جاء فيه ان البار أيضاً إذا رجع عن بره وطاعته كان ذلك بمثابة الموت له، جاء في سفر حزقيال: "إذا رجع الشرير عن جميع خطايا التي فعلها وحفظ كل فرائضي وفعل حقاً وعدلاً فحياة يحيا. لا

(1)- الكتاب المقدس: [سفر التكوين 2: 16-17]

(2)- الكتاب المقدس: [سفر التكوين 69: 3].

(3)- الكتاب المقدس: [سفر المزامير 3: 14]

(4)- يعقوب هجو الشيخ موسى: الخطيئة والكفارة في النصرانية والإسلام، (رسالة ماجستير في مقارنة الأديان، جامعة ام درمان الإسلامية، كلية الدعوة، 2009)، ص: 17.

(5)- الكتاب المقدس: [سفر الامثال 4: 23].

يموت. كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه. في بره الذي عمل يحيا. هل مسرة اسر بموت الشرير؟ يقول السيد الرب. الا يرجوعه عن طريقه فيحيا؟ وإذا رجع البار عن بره وعمل اثما وفعل مثل كل الرجسات التي يفعلها الشرير، أفيحيا؟ كل بره الذي عمل لا يذكر. في خيانتة التي خانها وفي خطيته التي أخطأ بها يموت"⁽¹⁾.

أما العهد الجديد فقد تحدث عن الخطيئة على أنها تبعد الانسان عن طريق الله وفي هذا يقول بولس: " إذا الجميع اخطأوا وأعوزهم مجد الله"⁽²⁾. فالعالم كله حسب ما جاء في العهد الجديد وقع تحت سطوة الخطيئة وأنه لا يوجد إنسان حي لم يخطئ، ويعرف العهد الجديد الخطيئة بأنها التعدي على حدود الله ويؤكد على أن الجميع أخطأوا بإرادتهم، جاء في رسالة يوحنا الاولى: " كل من يفعل الخطيئة يفعل التعدي أيضا. والخطيئة هي التعدي"⁽³⁾. ويقول بولس: " إذ نعلم أن الانسان لا يتبرر بأعمال الناموس لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما". فبولس في هذا النص يرى: " أن الانسان مهما كان خاطئا ثم تاب عن خطيئته وآمن بالمسيح فإنه يتبرر في الحال"⁽⁴⁾، يعني أنه إذا آمن بأن المسيح مات من أجله على الصليب قبلت توبته.

وتحدث العهد الجديد عن خطيئة آدم وبين أنها كانت السبب في دخول الخطيئة إلى العالم وأنه بدخول هذه الخطيئة دخل الموت للعالم وفي هذا يقول بولس: "من اجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية الى العالم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس، اذ أخطأ الجميع"⁽⁵⁾؛ ويعني بولس بهذا أن الخطيئة دخلت إلى العالم على يد آدم وبدخول هذه الخطيئة إلى العالم دخل كذلك حكم الموت على جميع البشر، لانه يرى أن الله حكم على آدم بالموت بسبب الخطيئة.

(1)- الكتاب المقدس: [سفر حزقيال 18: 21-24].

(2)- الكتاب المقدس: [رومية 5: 12].

(3)- الكتاب المقدس: [رسالة يوحنا الأولى 3: 4].

(4)- يعقوب هجو الشيخ موسى: مرجع سابق، ص: 19.

(5)- الكتاب المقدس: [رومية 5: 12].

هذا من ناحية التأصيل الديني في الكتاب المقدس لمسألة الخطيئة الأولى لآدم، اما من الناحية الفلسفية فإننا سوف نجد ان القديس أوغسطين يؤكد لبيلاج وانصاره ان الخطيئة الأولى هي التي حرمت آدم من النعمة الإلهية ومن الخلود فيها: "بعد ان نفى (آدم) من هذا المكان (الجنة) بعد خطيئته فرض (الله) عليه وعلى ذريته التي لوث بذورها بالرديئة، عقوبة الموت... وهكذا فان كل انسان ينحدر منه ومن زوجته لأنها كانت أداة خطيئته... ستلحق به الخطيئة الاصلية"⁽¹⁾. لقد كان آباء الكنيسة السابقين على القديس أوغسطين يركزون على مسألة القصاص والتأديب اللتين من شأنهما ابراز مسؤولية آدم الشخصية على الخطيئة الأولى، شأنهم شان النصوص المقدسة في العهد القديم. لكن القديس أوغسطين لم ينتهج منهجهم متأثرا بمعلمه القديس امبرواز، حيث ركز على ابراز الجانب الثاني أي مسؤولية كل البشرية على الخطيئة شانه في ذلك شان النصوص المقدسة في العهد الجديد. وكانت حجته عقلانية في ذلك؛ حيث يرى بان الخطيئة الأولى مختلفة عن سائر الأخطاء الزمنية التي يمكن للبشر ارتكابها من حيث انها ليست من قبيل الأفعال التي تنسب لصاحبها فحسب وانما هي في حقيقتها عصيان للإرادة الإلهية وبالتالي فهي وسمت جميع أبناء مقترفها. ولقد استعان القديس أوغسطين بمفهوم وحدة الإنسانية. أي ان كل الإنسانية وحدة مخطئة، وقد وجد هذا المعنى بعدة صيغ في كتابات القديس أوغسطين نذكر منها؛ "جماعة ملعونة massa démâta، او جماعة ملوثة massa luit، او جماعة خاطئة massa irae، او damnations جماعة ضالة"⁽²⁾.

هذه الخطيئة هي التي جعلت البشرية باعتبارها وحدة واحدة تعاني في الحياة الدنيا من الجهل والعبودية للشهوات الجسدية، وضعف الإرادة وضرورة المعاناة الدنيوية، وتذوق الموت جميعا. الا ان رحمة الله بعباده وبالمخلوقات اجمعين قد جعلته يرسل المسيح ليخلص الناس من الخطيئة. وهنا يقول القائل هل يعني هذا ان المسيح قد خلص الناس الماضين والحاضرين واللاحقين من الخطايا؟

(1) - زينب محمود الحضري: لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، (دار قباء القاهرة، دط، 1997)، ص ص: 83-84.

(2) - المرجع نفسه، ص: 48.

يرى القديس أوغسطين في هذا الصدد انطلاقا من تجربته في الحياة الخطيئة قبل توبته وإيمانه بالمسيح، ان الله لا يخلص بالمسيح الا من اختارهم او اشتملهم بلطفه فنجده يقول: "ان كل انسان ينحدر على حدا من نفس الكتلة الملعونة منذ البداية، لكن الله مثله مثل صانع الاواني الخزفية استخرج من نفس الكتلة كلا من أبناء المجد وأبناء العار"⁽¹⁾؛ حيث يرى القديس أوغسطين ان الذين اختارهم الله او الذين شملهم بلطفه هم أولئك الذين آمنوا بالمسيح على انه ابن الله وانه قد ارسله إليهم ليخلصهم. هذا شرط الخلاص عنده ومن خالفه لا يمكن ان يشمله الله بلطفه، وهذا المنظور نجد ان القديس أوغسطين قد اخذه مباشرة من رسائل بولس الرسول كما سبق وأشرنا اليه في التأصيل الديني من الكتاب المقدس في العهدين القديم والجديد للخطيئة البشرية الاولى.

وهكذا نجد ان خطيئة ادم عند القديس أوغسطين ليست عادية وانما هي عصيان وتمرد على الله لذلك تحملت الإنسانية كلها وزرها وذلك بحكم ان الإنسانية كلها وحدة واحدة. اما مسألة الحساب والعقاب فتبقى الى الدينونة الأخيرة. وبناء على كل ما سبق كيف فسر القديس أوغسطين مسألة الشر في العالم؟

ثانيا: أصل الشر.

ترجع بذور فكرة الشر في فكر القديس أوغسطين الى الفكر المانوي الذين كانوا يفسرون العالم وفق مبدئين أساسيين يتنازعانه منذ الازل وهما الظلمة والنور ومبدأ الخير والشر. وبعد اعتناقه المسيحية اجتهد في تدعيم تلك الافكار بناء على معتقده الجديد، حيث نجده قد انطلق في تفسيره لوجود الشر في الانسان وفي العالم، من المفارقة القائلة ان الله خير وهو لا يتغير فكيف يوجد ما هو شرير وفساد؟

(1) - زينب محمود الحضري: مرجع سابق، ص: 48.

ان القديس أوغسطين يعد أعظم الفلاسفة في تفسيره لفكرة الشر في الطبيعة والانسان؛ ذلك انه يرى ان كل المخلوقات قد خلقها الله وهي ليست من جوهره بل خلقها من العدم "وما جاء من العدم فليس وجودا محضاً وليس نقياً بل وجود ملوث بالعدم"⁽¹⁾.

بدا القديس أوغسطين في تفسيره الأصل الشر بتوضيح ان الموجودات تنقسم الى ثلاثة كمالات أساسية وهي: "التناسب(الاعتدال)"⁽²⁾ والصورة والنظام، وبحسب نصيب كل موجود من هذه الكمالات تكون درجته من الخير. واما الشر فهو سوء ترتيب او نقص او فساد في واحدة من هذه الكمالات او فيها جميعاً، وهكذا تكون درجة الشر بحسب قدر الفساد والنقص في هذه الكمالات⁽³⁾؛ أي ان الشر ليس له صفات لأنه أصلاً غير موجود، فلا يمكن ان تكون للعدم صفات. والشر لا يمكن ان يفهم بمعزل عن الخير، لأنه لا يحضر الا بفساد الخير او غياب⁽⁴⁾.

الشر عند القديس أوغسطين ينقسم الى نوعين: شر طبيعي وشر أخلاقي؛ فالشر الطبيعي هو الشر الذي تعنى به الموجودات الطبيعية أي الغير عاقلة الجمادات والحيوانات والنباتات، وهذا الشر الذي نراه نحن مثل الأعاصير والزلازل والبراكين وقاتال الوحش بعضه بعضاً انما هو في أصله خير؛ لان ذلك هو سبيل الطبيعة في التغيير فيقول القديس أوغسطين بانه: "لجميل منظر التغيير الذي تحدثه هذه العوامل الهدامة"⁽⁵⁾، واما الشر الأخلاقي فهو الشر الذي تعنى به الذوات العاقلة اي المكلفة بالفعل الأخلاقي وهذا النوع من الشر هو الشر الأصعب تفسيراً عند القديس أوغسطين لأن العقل مناط التكليف، فبحسب هذا الشر يكون العقاب، كما ان

(1)- بدوي عبد الرحمان: موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، ص: 251.

(2)- المرجع نفسه، ص: 251.

(3)- المرجع نفسه، ص: 251-252.

(4)- المرجع نفسه، ص: 252.

(5)- المرجع نفسه، ص: 251.

الشر الأخلاقي يرجع الى الإرادة الإنسانية، وحرية الاختيار بين الخير والشر، وهنا يقول القائل ل"ماذا شاء الله ان يعطي الانسان حرية الإرادة في اختيار الخير او الشر؟ لما لم يلهمنا فعل الخيرات فقط؟"⁽¹⁾

الإرادة عند القديس أوغسطين في أصلها خيرة والحرية هي التي تحيلها الى الشر، وهنا نجده يربطنا الى الخطيئة الأولى لتفسير فكرتي الإرادة والحرية التي منحها الله لنا. فالطبيعة الإنسانية في أصلها خيرة الا انها فسدت بعد خطيئة آدم عليه السلام، "وتشوهها بالشهوات والجهل"⁽²⁾، لكن الله بفضل رحمته بنا لم يكتب علينا اللعنة او الخلود في العذاب بعد عصيانه بل منحنا فرصة للتوبة والعمل لكي يغفر لنا، فمنحنا الحرية والإرادة في اتباع الخير او الشر، ثم اخترنا بالشهوات ومنازعات النفس ومغالطات الشياطين. والذين سوف ينجحون في الاختبار ويتغلبون على الشهوات والشياطين هم الذين يصيهم اللطف الإلهي، ولكي يستطيع العبد الدخول في دائرة اللطف الإلهي والنعمة الأبدية يجب عليه اعتناق الدين المسيحي فقط وان يؤمن بان الله قد أرسل ابنه المسيح ليخلصهم من الخطيئة.

يقول القديس أوغسطين: " على ان الدافع الحقيقي لخلق كل الخيرات هو صلاح الله وهو دافع في غاية الدقة"⁽³⁾؛ أي ان الأصل في خيرية كل الأشياء هو صلاح الله بل وحتى خلق العالم نفسه يقول: "حتى اذا تأملناه بكل انتباه وتقوى، رأيناه يضع حدا لكل نقاش حول اصل الكون"⁽⁴⁾، واما اصل الشرور كلها في الانسان فيعود في الأصل الى الخطيئة الأولى لسيدنا ادم عليه السلام، وهو حكم عادل في نظر القديس أوغسطين حين تدخل الشرور الى العالم والى البشرية، فيقول: "لأننا بحكم عذاب الخطيئة العادل، ترانا ضعفاء محكوم علينا بالموت، يطاردنا الف حادث وحادث، يناقض بعضها بعضا، كالنار والبرد ووحشية الحيوانات الكاسرة..."⁽⁵⁾، كما نجد

(1)- بدوي عبد الرحمان: موسوعة الفلسفة، ص: 252.

(2)- المرجع نفسه، ص: 252.

(3)- القديس أوغسطين: مدينة الله، تر: الخور أسقف يوحنا الحلو، (دار الشرق، بيروت، ط2، 2008، ج2)، ص: 35.

(4)- المصدر نفسه، ص: 35.

(5)- لمصدر نفسه، ص: 35.

يفسر تفسيراً عقلياً ان الشر هو سوء استعمال من الانسان للنعم والخيرات، دليلاً من التجربة المعاشية للإنسان
 فمثلاً: "ان السموم المؤذية بحد ذاتها، اذا استعملت بتوؤدة، تصبح علاجات خلاصيه، ومن جهة أخرى، فهناك
 أشياء مقبولة جداً، كالغذاء والشراب والنور تصبح عاطلة ومؤذية، اذا فرط الانسان في استعمالها، ولم يتمتع بها
 بحصافة"⁽¹⁾؛ أي ان كل شيء خلقه الله وسخره للإنسان انما هو خير في اصله، وانما البشر هم الذين يحيلونه الى
 شر بسوء استعمالهم إياه. اما من ناحية الشرور الطبيعية فالقديس أوغسطين كما سبق الذكر لا يراها شروراً مطلقاً
 بل هي خيرات، فهي سبيل الطبيعة في التغيير، لأن كل العوامل الهدامة التي راها البشر كذلك، إنما هي في واقع
 الامر تهدم كيانات نراه نحن اليوم، ليبنى مكانها كيانات أخرى لا يحيط بعلمها الا الله، فالبركان الذي يهلك
 أشجاراً في الغابة، نراها نحن شراً مهلكاً لتك الغابة، ولكننا سرعان ما نرى تلك الأشجار تنمو من جديد، بل
 وقد تكون في اغلب الأحيان احسن مما كانت عليه من قبل، سيصبح الرماد سماداً لبذور كانت قد طمرت في
 تراب الغابة لتنمو اشجاراً أخرى أكثر فتوة . ثم نجد ان قاعدة عامة في هذا الصدد مفادها انه "في الحقيقة
 لا يمكن للشر ان يكون جوهرًا، بل هو فقدان للخير..."⁽²⁾.

وفي الأخير يمكن القول ان القديس أوغسطين يرى ان السبب الأساسي في الشر هو طبيعتنا التي خلقنا
 منها وهي العدم، وما خلق من النقص لا بد ان يشوبه الفساد. فنزوع المخلوقات الى الفساد أدى بآدم الى الخطيئة
 الأولى. ام الشرور الزمنية فسببها خطيئة آدم، لان القديس أوغسطين يرى ان البشرية مشتركة معه في الخطأ،
 بحسب مبدأ وحدة البشرية؛ أي ان الشر لم يخلق فينا من جوهر الله بل نتيجة العدمية فينا. وما الحياة الدنيا الا
 نعمة من الله للتكفير عن الخطيئة الأولى، ولكي تشمل الانسان النعمة واللفظ الإلهي يجب عليه اعتناق الايمان
 المسيحي، والايمان بان المسيح قد مات للتكفير عن خطايا البشر، وانه سوف يعود في آخر الزمان ليحكم مدينة
 الله بالعدل والسلام الابديين.

(1) - القديس أوغسطين: مدينة الله، مصدر سابق، ص: 35.

(2) - المصدر نفسه، ص: 35-36.

فإذا كانت هذه نظرة القديس أوغسطين الى الخطيئة والى أصل الشر الذي يمثل كل رذيلة فينا، فكيف

كانت نظرتة الى الفضيلة؟ وما هي اهم الفضائل عنده؟

المبحث الثالث: الفضيلة عند القديس أوغسطين

مفهوم الفضيلة عند القديس أوغسطين قد أخذ حظه الوافر من الشرح والتحليل في جميع كتاباته فلا يكاد مؤلف من مؤلفاته يخلوا من هذا المفهوم. فهو يركز في كافة تعاليمه وفي شتى مجالات الحياة على ضرورة الفضائل، فلنكي يتخلص الانسان من الشرور ومن الآلام والآثام، ويتخلص من سجن الجسد، عليه التحلي بالفضائل واجتناب الرذائل، فيحقق بذلك رضا الله ومحبهه، فيكتبه في اهل مدينته السماوية مع الأنبياء والملائكة والقديسين. والفضائل التي يدعوا اليها القديس أوغسطين ليست تلك التي تعد في الخيور الطبيعية الأولى والتي تولد مع الانسان بالفطرة، ولا تلك الفضائل الخارجية عنه والغريبة عن نفسه، وإنما الفضائل التي يقصدها القديس أوغسطين هي تلك الفضائل التي نكسبها بالتربية السليمة، والتجربة المعيشة، والتي تكون بمثابة حرب داخلية بين الانسان ونفسه، فهي إذا فضائل داخلية يكسبها الانسان لمحاربة الشرور فيها، فينتج بذلك صراع الفضائل والرذائل الداخلية بين الروح والجسد ولأيهما كانت الغلبة يحسب الانسان، فإما خيرا فاضل أو شريرا راذل.

ينطلق القديس أوغسطين في طرحه لموضوع الفضيلة من فكرة أساسية مفادها ان الفضائل يجب ان تكون حربا على الرذائل؛ لان الفضائل التي يقصدها القديس أوغسطين تكتسب بالتربية وليست فطرية فينا؛ حيث يقول: "الفضيلة ذاتها لا تعد بين خيور الطبيعة الأولى؛ لأن التربية تدخلها لاحقا بعدها، على ان الفضيلة التي تطالب بالمركز الأول بين خيور الانسان ما هو عملها هاهنا؟ والا كانت حربا على الرذائل؛ لا على الرذائل الخارجية بل الداخلية، ليست حربا على الرذائل الغريبة بل على رذائلنا الخاصة والشخصية"⁽¹⁾. وقد استمد القديس أوغسطين هذه النظرة للفضيلة من تجربته في الحياة، اذ رأى انه لو كانت الفضائل طبيعية أو فطرية في البشر لما عاش اثنان وثلاثين سنة من عمره غارقا في احوال الرذيلة، بل لكان فاضلا منذ ولادته، وعلى هذا الأساس استنتج ان الناس لا يولدون فاضلين وانما يكتسبون الفضيلة.

(1) - القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 115.

يعرف القديس أوغسطين الفضيلة على انها "كل ما على الانسان ان يعمل، والسعادة هي كل ما يشتهي"⁽¹⁾؛ فالسعادة عنده تتعلق بما يطلبه الجسد، وترتبط بالشهوات والملذات، اما الفضيلة فتتعلق بما يقدمه ويعطيه الانسان لغيره، ويعرفها أيضا في قولة: "وفي بداية الامر فليكن راسخا في العقول ان الفضيلة، المبدأ الأساسي لحياة صالحة، هي التي تأمر من أعلى النفس، مقرها، أعضاء الجسد فيتقدس الجسد بإرادة مقدسة"⁽²⁾. ولما كانت الفضيلة تتعلق بما يجب علينا ان نعمله، فيجب أيضا ان يكون هذا العمل نابع عن محبة صادقة، وليست أي محبة انها محبة الله وحده، يقول: "ان أدت بنا الفضيلة إلى الحياة السعيدة فإني أؤكد بان لا كمال في الفضيلة الا بمحبة الله السامية"⁽³⁾. وسوف نجد فيما بعد ان كل العالم عند القديس أوغسطين قائم على نوعين من الحب هما حب الله الذي يولد الخيور والفضائل، وحب النفس الذي يولد الشرور والذائل.

يجعل القديس أوغسطين جماع الفضائل عنده في أربعة فضائل أساسية رئيسية يطلق عليها اسم الفضيلة الرباعية يعرفها على انها تنوع في التعبير عن حب الله في قوله: "اما ما يسمى بالفضيلة الرباعية فهو تنوع في التعبير عن الحب ذاته بقدر ما يدركه عقلي"⁽⁴⁾. وتمثل هذه الفضائل الأربعة في الاعتدال والبر والقوة والفتنة.

فضيلة الاعتدال: الاعتدال هو الفضيلة التي "تكبح جماح الرغبات الجسدية خوفا من ان تنتزع من العقل الضعيف تنازلات مؤسفة"⁽⁵⁾؛ ويكون بذلك الاعتدال هو الفضيلة التي تعنى بكبح الشهوات والميولات الجسدية، ولما كانت الفضيلة بمثابة الحرب ضد الرذيلة فان الصراع بينهما يمثل صراع الجسد والروح؛ فالجسد يطمح ويريد ما لا تريده الروح، والروح تريد ما لا يريد الجسد، يقول القديس أوغسطين "والا يجوز الاعتقاد بان لا عيب فينا حين يقول الرسول(الجسد يشتهي ما هو ضد الروح)[غل5/18] طالما ان الرسول نفسه يكشف لنا عن مقاومة تقوم بها فضيلة مضادة فيقول: (الروح يشتهي ما هو ضد الجسد) مضييفا (كلاهما في حرب ولستم تعلمون ما

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 193.

(2)- المصدر نفسه، ص: 34.

(3)- القديس أوغسطين: خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، تر: الخوري يوحنا الحلو، (دار المشرق، بيروت، ط7، 2004)، ص: 366.

(4)- المصدر نفسه، ص: 366.

(5)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج3، مصدر سابق، ص: 115.

تريدون)"⁽¹⁾؛ فهذه الفضيلة المضادة كما يسميها القديس أوغسطين هي فضيلة الاعتدال. كما نجد القديس أوغسطين يعرف الاعتدال تعريفاً آخر قائم على مبدئه الأساسي (الحب) فيقول: "الاعتدال هو الحب الذي يقدم ذاته إلى محبوبه كاملاً"⁽²⁾؛ والمحبوب بحق عند القديس أوغسطين هو الله، فيصبح الاعتدال حينها "هو حب الله الكامل من دون عيب"⁽³⁾. كما ان الاعتدال هو بمثابة الحب الرادع للإنسان فيردعه عن الشهوات والملذات، فالإنسان عند أوغسطين نوعان انسان ارضي آثم قد انغمس في اشباع رغبات الجسد، وانسان سماوي قد أحب الله وعرف الحقيقة؛ فالأول قديم والثاني جديد قد اقام حياته على الاعتدال وبالاعتدال، يقول أوغسطين: "يقوم الاعتدال في ان ينزع المرء الانسان العتيق ويلبس الجديد في الله، أي ان يرذل مغريات الجسد والمجد البشري، ويصوب محبته كاملة إلى ما هو الاهي غير منظور ... أحب الله وارذل كل ما هو محسوس واستخدمه فقط لقضاء حاجات الحياة الدنيا"⁽⁴⁾.

فضيلة البر: هي الفضيلة التي تعنى بالحب الذي يجعل للإنسان سيذا واحدا هو الله فيكون خادما له بصدق واتياد كاملين بلا قيود أو شروط. فهو يكسب الانسان قوة وإرادة وحبا جما في ان يسير في خدمة الله طوعا لا كرها، ويعرفه القديس أوغسطين على بقوله " البر هو الحب الذي لا يخدم سوى محبوبه، فيسيطر بصدق"⁽⁵⁾؛ أي " البر هو الحب الذي لا يخدم سوى الله ولذلك فهو يسيطر جيدا على الباقي؛ أي على ما هو خاضع للإنسان"⁽⁶⁾، والبر بهذا المعني يكون هو الحب الذي يجعل المرء يثق في خالقه، فيعمل بأوامره بكل طاعة وينتهي عما نهاه عنه بكل رضوخ فلا يخالفه إلى غير ذلك ابدأ، و"يهب البر من يحب الله قاعدة للحياة تساعد

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج3، مصدر سابق، ص: 115-116.

(2)- القديس أوغسطين: خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، مصدر سابق، ص: 366.

(3)- المصدر نفسه، ص: 366.

(4)- المصدر نفسه، ص: 367.

(5)- المصدر نفسه، ص: 366.

(6)- المصدر نفسه، ص: 366-367.

على ان يخدم الله الذي يجبه خدمة طوعية، لكونه الخير الأسمى والحكمة السامية والسلام الأسمى، وعلى ان يسيطر على ما هو دونه ويحسن الظن بما يجب ان يخضع له⁽¹⁾.

فضيلة القوة: تمثل الحب الذي يجعل المرء يتحمل كل العذابات والآلام في سبيل محبوه، فيخوض الصعاب في سبيل الوصول اليه ثم يخوضها تارة أخرى في سبيل الدفاع عنه يقول القديس أوغسطين: "القوة هي الحب الذي يتحمل كل شيء في سبيل محبوه"، فهي "الحب الذي يتحمل كل شيء وبسهولة في سبيل الله"⁽²⁾، أي أن القوة الحقيقية عند القديس أوغسطين ، هي أن على الانسان ان يصارع ويكابد كل معاناه ممكنة دون اكتراث للآلام التي تسببها حتى يصل إلى الله، كما ان عليه ان يصبر على ذلك الحال بعد وصوله إلى الله فيتحمل المصاعب والمصائب من جديد في سبيل تحقيق محبته ورضاه وفي سبيل الدفاع عن دينه وعقيدته، وألا يهتم أبدا بالمغريات الدنيوية والشهوات الجسدية والخير الزمنية، بل عليه ان يزداد قوة كلما خسرها ونجده يقول في هذا الصدد: " القوة هي الحب الذي يجب ان يكون مضطرا لله. فيكبح جماح رغباتنا في الخير الأرضية حتى إذا خسرنا كان قويا"⁽³⁾. ثم يعطينا القديس أوغسطين مثلا عن الصبر بقصة سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام لما ابتلاه ربه؛ فخسر ماله وأولاده وصحته ليصبح فقيرا بعدما كان غنيا، وسقيما بعدما كان صحيحا، الا انه صبر ولم يكثر إلى ما أصابه، بل ازداد قوة ومحبة إلى الله في قلبه، يقول: " لما خسر أيوب ماله كله وأصبح معدما، ظل متحدا بالله في قلبه اتحادا لا يتزعزع. وظهر عدم اكتراث برزقه واعتبر الله أسمى كنز عنده"⁽⁴⁾. فلو ان كل انسان في نظر القديس أوغسطين قد تحلى بمثل هذه الفضيلة لما كان بحاجة إلى أنبياء ورسول أو كتب مقدسة لترشده وتوصله إلى السعادة يقول: " لو تحلى أبناء عصرنا بجرأة ماثلة لما كنا بحاجة إلى قدرة الكتب المقدسة كي نبعد عنا تلك الخيور، بلوغا إلى الكمال...."⁽⁵⁾. وبالرغم من كل الثناء الذي اثناه أوغسطين لهاته الفضيلة إلى انه يحذر من مغبة

(1)- القديس أوغسطين: خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، مصدر سابق، ص: 366

(2)- المصدر نفسه، ص: 366.

(3)- المصدر نفسه، ص: 367.

(4)- المصدر نفسه، ص: 367.

(5)- المصدر نفسه، ص: 368.

انفصالها عن الحكمة؛ لان القوة ان كانت تعوزها الحكمة فإنها تستحيل رذيلة وتهلك صاحبها فكم من محب لله تشدد في حبه ولم يفقه كيفية معاملة الناس بهذا الحب، ابعد الناس عن حبه وعن حب ربه" والفضيلة تلك التي تسمى بالقوة وان واكبتها الحكمة أليست شاهدا على شرور الانسان، وتضطر إلى قبولها بالصبر على ان شهادتها نافذة ولا مرد لها"⁽¹⁾.

فضيلة الفطنة: هي الفضيلة الرابعة وتمثل في الحب الذي يساعد المرء على التمييز بين ما يساعدنا على البلوغ إلى الله وبين ما يجمع ذلك عنه، أي التمييز بين ما يقرنا من الله وبين ما يبعدنا عنه يقول: "الفطنة هي الحب الذي يميز بين ما يساعد على البلوغ إلى الله وبين ما يمنع عنه الفطنة هي الحب الذي يميز بين ما يقرب إلى الله وما يبعد عنه"⁽²⁾، وتعنى هذه الفضيلة بالحذر الدائم والتسلح بالانتباه مما يبعد المرء عن محبوه، والسعي المجد إلى ما يوصل اليه في كل حركاته وسكناته "الفطنة ان تتسلح بالانتباه والسهر التام لئلا تقع فريسة مشير عاطل"⁽³⁾. كما نجد القديس أوغسطين يعرف الفطنة في كتابه مدينة الله تعريفا عمليا من حيث استعمالها وعملها فيقول "وتلك الفضيلة المسماة فطنة الا تستعمل وعيها لتمييز الخير من الشر، كيلا تقع في ضلال، في سعيها إلى الخير وهروبا من الشر؟ ومع ذلك فإنها تشهد بأن الشر فينا، أو باننا في الشر وهي نفسها تعلمنا بان القبول بالخطيئة شر، وأن مقاومة الميل إلى الخطيئة خير"⁽⁴⁾.

الفطنة عند القديس أوغسطين هي أسمى الفضائل من باب التفضيل بين الفضائل الأربع؛ لان المرء إذا فقد الانتباه والحذر فيما يقربه إلى الله وفيما يبعده عنه فلا حاجة له إلى باقي الفضائل الأخرى، لأنه حتما إذا فقدها سوف يقع يوما ما في شرك التعطيل التي تسير به إلى ما يبعده عن الله شيئا فشيئا إلى ان تحط به في جحيم الكفر يقول القديس أوغسطين: "ان اعوزتك الفطنة فلا مجال للفضائل التي سبق الكلام عنها"⁽⁵⁾.

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج3، مصدر سابق، ص: 117.

(2)- القديس أوغسطين: خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، مصدر سابق، ص: 366-367.

(3)- المصدر نفسه، ص: 368.

(4)- القديس أوغسطين: المصدر السابق، ص: 116.

(5)- المصدر السابق، ص: 368.

كما نجد القديس أوغسطين يذكر جملة من الفضائل الأخرى التي تكون تباعا لما سبق من الفضائل المذكورة آنفا مثل الطهارة والقدرة فيقول: "الطهارة فضيلة في النفس وان القدرة رفيقتها العادية تؤهلها لان تتحمل كل شيء لا ان تقبل بالشر..."⁽¹⁾، ويذكر أيضا العفة "...نسميه بفضيلة العفة..."⁽²⁾، والحكمة وغيرها من الفضائل الأخرى التي يجب على المرء التحلي بها للوصول إلى الله، ويستحق مكانه بين سكان مدينة الله.

ومن خلال ما سبق، يمكننا القول إن بحث القديس أوغسطين عن الحقيقة، وحببه للحكمة قد قاداه إلى البحث في شتى المذاهب الفلسفية، والعقائد الدينية؛ فتنقل من المانوية إلى الشك ثم إلى الافلاطونية وغيرها من المدارس الفكرية، ليصل في النهاية إلى العودة إلى أمنية امه مونيكا، وهي العودة إلى المسيحية والتدرج في مراتبها إلى ان صار أسقفا في نهاية عمره. كما ان رحلته هذه قد ساهمت في تشعب فكره لينتج نظريات محكمة في شتى مجالات الحياة ولعل نظريته في أصل الشر وتفسيره لفكرة الخطيئة الأولى يأخذان مكان المقدمة في اهم اعماله.

ففكرة الخطيئة عنده قد دمجها بفكرة وحدة الإنسانية ليصل في النهاية الى ان سبب الخطيئة الأولى راجع إلى مصدر خلق الانسان وهو العدم فلا يمكن لما هو عدم ان يكون كاملا، وبناء على ذلك عاد ليفسر أصل الشر في الانسان والطبيعة؛ فأما الشر في الطبيعة ففسره على انه طريقها في التغيير وليس شر بمعناه الإنساني، واما الشر في الانسان فهو راجع إلى الخطيئة الأولى، لينفي في النهاية كل نقص عن الله. ثم انه لكيلا يترك الانسان حائرا في كيفية الخلاص من الشرور التي كتبها على نفسه، قدم القديس أوغسطين فكرته عن الفضيلة التي تقود الانسان إلى الخلاص وإلى ان يكون مواطنا في مدينة الله مدينة الفضلاء والابرار، وكل هذه الفضائل تقوم عنده على المبدأ الأساس الذي تقوم عنه الأشياء كلها عند القديس أوغسطين وهو (الحب).

ولما كان فكر القديس أوغسطين متشعبا كل هذا التشعب لي طرح لنا فكره الاخلاقي بهذا الشمول والدقة، فلا بد انه قد طرح أيضا نظريات في مجالات الحياة الأخرى مثل السياسة والاجتماع وغيرها من مجالات الحياة. ولما كان الوقت الذي عاش فيه القديس أوغسطين وقت اضطرابات سياسية فلا بد ان الفكر السياسي كان له السبق

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 35.

(2)- المصدر نفسه، ج3، ص: 34.

في الدراسات الأوغسطينية، ففيمما تمثل الفكر السياسي عنده؟ كيف برر القديس أوغسطين تشكل الدولة؟ وماهي اهم المقومات التي تقوم عليها الدول في المنظور الأوغسطيني؟ وكيف فسر العلاقة بين السلطات الدينية والسياسية في تسيير شؤون الدولة؟

الفصل الثاني: الفكر السياسي عند القديس

أوغسطين

المبحث الأول: نشأة الدولة

المبحث الثاني: مقومات الدولة

المبحث الثالث: مصدر السلطة في الدولة

الفصل الثاني: الفكر السياسي عند القديس أوغسطين

المتبع للفكر الأوغسطيني يغلب عليه الظن ان نسق القديس أوغسطين في التفكير لم يكن سياسيا او اجتماعيا او لاهوتيا بحتا، وانما كان نسقا شموليا، حيث نجده قد كتب في شتى مجالات الحياة الإنسانية آراءه التي كان لها الأثر البالغ في الفلسفة المسيحية فيما بعد. ونحن في هذا الفصل سنسلط الضوء على آرائه السياسية التي نبعث في معظمها لسببين رئيسيين، أولهما طبيعة القديس أوغسطين المؤمنة ونفسيته الثائرة في وجه الهجمات الضاربة التي شنّها الوثنيون على الدين المسيحي حين اتهموه-الدين المسيحي-بانه السبب في جلب الدمار الى روما حين اغضب آلهتها. والسبب الثاني مواطنته الرومانية ووقوفه امام امبراطورية آيلة الى الزوال والخراب، هذه الإمبراطورية التي كانت تمثل في نظره مثالا للحضارة العالمية والتي كان يحلم بان يجعلها الحضارة الأبدية بنشر تعاليم الدين المسيحي. في انتظار المسيح المخلص الذي سيقودهم في نهاية التاريخ.

ألف القديس أوغسطين كتابه الشهير مدينة الله بأجزائه الثلاثة بغية الرد على أولئك الوثنيين والانتصار للدين المسيحي يقول: "بعد ان دحضت بمعونة النعمة الالهية، أعداء المدينة المقدسة الذين يؤثرون ملوكهم على المسيح مؤسسها، وبواسطة شعور بالغيرة يحمل الشؤم إليهم، أعلنوا على المسيحيين كراهية شديدة"⁽¹⁾. ليتجاوز بذلك عواطفه المؤمنة ومشاعره المتقدة من جهة، واحساسه الروماني بالحيرة على بلده السائر الى التفتت، والرغبة في إيقاف هذه الحال المزرية التي وقعت فيها روما من جهة ثانية. هذه الرغبة في تصحيح الأخطاء التي وقعت فيها روما والتي أدت بها الى الخراب، هي التي جعلت القديس أوغسطين بالرغم من رهنته التي تفرض عليه اجتناب السياسة، ينخرط في المجال السياسي، فيكتب آراءه ان لم نقل نظريته في السياسة، فتحدث فيها عن نشأة الدولة، وعما يجب ان يتوفر فيها من مقومات لتقوم على أساسها، كما تكلم عن السلطة ومصادرها وكيفية استغلالها لتحقيق الصالح العام للشعب. وهنا نضطر الى التساؤل عما هو فحوى هذه النظرية السياسية عند القديس أوغسطين؟ وبعبارة

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج3، مصدر سابق، ص: 6.

أخرى كيف تنشأ الدولة في نظره؟ وماهي اهم المقومات التي يجب ان تقوم عليها؟ وماهي مصادر السلطة عنده

لتسيير هذه الدولة؟

المبحث الأول: نشأة الدولة.

الفكر السياسي للقديس أوغسطين فكر شمولي متشعب؛ حيث تطرق الى كافة المجالات السياسية، فبين كافة المفاهيم التي بنى عليها أفكاره. لينطلق من تحديد مفهوم الاسرة ويصل الى تحديد مفهوم المجتمع الملائكي.

أولاً: مدينة الله ومدينة الارض

تقوم الآراء السياسية للقديس أوغسطين في البداية على التقسيم الثنائي للمدينة "...احدها مدينة الله، والأخرى مدينة العالم فيها تسافر الأولى اليوم لكونها تختص بالبشرية"⁽¹⁾، وهذا التقسيم يقوم على آلية أساسية تتمثل في الحب ف" حبان بنيا مدينتين: حب الذات حتى احتقار الله بنى المدينة الأرضية، وحب الله حتى احتقار الذات بنى مدينة الله. إحدها تفاخر بذاتها والثانية بالله تفاخر"⁽²⁾. وقد وجدنا جنبا الى جنب، وستبقيان كذلك الى "غاية الدينونة الأخيرة"⁽³⁾،

مدينة الله هي المدينة التي أسسها قايين قبل مجيء السيد المسيح، وهي التي تضم طائفة المسيحيين المؤمنين، تسمى أيضا بالمدينة السماوية، تعمل لأجل ان تجعل الفضيلة والعدالة مسيطرتان، وقد فوض الله للكنيسة ان تبني هذه المدينة، وهو يساندها ويساعدها في ذلك، هي مدينة خاضعة لله مسالمة هادئة، تفضل الحقيقة على المدائح الخادعة، فيها يريد كل فرد لغيره ما يريد لنفسه فيؤثر أهلها بعضهم على بعض ويساعد بعضهم بعضا في الآلام والشدائد، فهي مدينة المؤمنين بالمسيح والخاضعين لله، موطن الاخلاق العالمية والحضارة الأبدية. مدينة لله تخضع للقانون الطبيعي الذي يمثل قانون الحكم الإلهي، يقول القديس أوغسطين عن هذا القانون: " نعبد هذا الإله الذي يرسم للطبائع أصولها، هو خالقها ومبدؤها وغاية حركتها ومداهها في الزمن"⁽⁴⁾، فالأسباب الطبيعية هي قوانين وسنن

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 6.

(2)- المصدر نفسه، ج2، ص: 211.

(3)- علي زيعور: مرجع سابق، ص: 225.

(4)- المصدر السابق، ج1، ص: 354.

العناية الإلهية الخالدة التي "لسنا نفصلها عن إرادة الله خالق الطبيعة وسيدها"⁽¹⁾؛ أي العناية الإلهية هي التي تسيّر قوانين مدينة الله وتوجهها، فهي "العناية التي تامر العلل الأولى والثانوية"⁽²⁾.

اما المدينة الأرضية فيرى القديس أوغسطين انها مدين تساند الشر، تقوم على الظلم والجشع، خاضعة للشهوات والنزوات الجسدية ففيها يسيطر الجسد على الروح، وهي في حرب دائمة مع مدينة الله تعارضها وتنازعها في الخيور. مدينة الأرض مدينة بابلية يسكنها شرار الخلق من الإنس والشياطين، الحب فيها غير نقي حسودة، سكانها لا يؤمنون بالمسيح ولا يعرفون الطريق الى الله، يخضعون للمدائح الزائفة، كافرون يحبون اخضاع الغير والتسلط عليهم، وستدوم في الآخرة في النار. مدين الأرض خاضعة للقانون الوضعي، ابتكره البشر بمعونة الله ينظم حياتهم، فالله في نظر القديس أوغسطين لا يكتفي بخلق الخلق ويتركهم هملا ممن لا يؤمنون به، بل الله يتجاوز ذلك برحمته ولطفه، فيتدخل في حركة الشعوب الكافرة أيضا فيلهمهم سن القوانين ليساعدهم في تسيير امورهم على اخلاق المدينة الأرضية، وهنا نجد القديس أوغسطين يضرب لنا مثلا بالحضارة الرومانية بقوله: "امد الله الاحد-إله البر والحق-الرومان بعون منه، فعرفوا بناء عظمتهم الفضيل على أخلاقية المدينة الأرضية"⁽³⁾.

مدينة الله(المدينة السماوية) ومدينة الأرض التين يتصورها القديس أوغسطين، ليستا ماديتين كباقي المدن وانما هما مدينتين متخيلتين، حيث يسكن الأولى الابرار ويسكن الثانية الأشرار؛ فهما متداخلتين ومختلطتين من حيث الولادة والتقدم في الحياة، والمدينتان تلتقيان في الحياة الراهنة فيشارك اهل المدينة السماوية في مزايا المدينة الأرضية واعبائها؛ ذلك ان الخيرات الزمنية عند اهل المدينة الأرضية هي غايات يتنازعون عليها ويستمتعون بها ويطلبونها لذاتها، اما عند اهل المدينة السماوية في مجرد وسائل يستخدمونها لصيانة حياتهم وتحقيق الغاية الحققة التي تتمثل في الفضيلة والكمال الروحي. كما يرى القديس أوغسطين ان التشابه بين الناس المؤمن منهم والكافر في تحمل مصائب

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 234.

(2)- المصدر نفسه، ص: 355.

(3)- المصدر نفسه، ص: 225.

وآلام الحياة لا يعني تشابهم في المصائر أيضا فقد "شاءت العناية الإلهية ان تعد للأبرار في المستقبل خيرات لن يتمتع بها الأشرار، وان تعد لهؤلاء ويالات لن يذوقها الابرار، اما فيما يختص بالخيرات والويلات الزمنية فتريدها مشتركة بين الفئتين، لثلا يسعى الإنسان اليها"⁽¹⁾، فكل ما يصيب الأشرار من خير في الدنيا سيؤول في الآخرة الى عذابات وويلات، وكل مل يصيب الأبرار من شرور وآلام سيتحول بفضل النعمة الإلهية في الآخرة الى خيرات" ونحن نعلم ان كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله"⁽²⁾.

ثانيا: نشوء الدولة

بعد ان بين القديس أوغسطين كيف تقوم كل مدن العالم على شكلين، مدينة الله ومدينة الأرض، شرع في طرح آرائه السياسية التي يجدر الإشارة الى انها تختص بالمدينة الأرضية لأنها موطن السلطات السياسية والقوانين الوضعية، اما المدينة السماوية فهي في نظره لا تحتاج الى تشريعات بشرية لان الله هو المشرف عليها وليس على الانسان الا طاعة الله في تشريعه. الا ان المدينة السماوية ستخضع الى تشريعات المدينة الأرضية بحكم انهما متداخلتين في الحياة الدنيوية.

انطلق القديس أوغسطين في آرائه حول نشأة الدول وقيامها من توضيح جملة من المفاهيم الأساسية، مثل الجماعة والشعب والمجتمع؛ فنجده يعرف المجتمع على انه: " مجموعة من الافراد يشتركون في الأفكار والعواطف ويؤلفون وحدة معنوية تقوم على الرضا والمحبة. تهدف الى غاية مشتركة"⁽³⁾؛ وليس كل مجموعة افراد يعيشون في مكان واحد يكونون مجتمع، بل لكي يكونوا مجتمع يجب ان تتوفر عندهم جملة من العوامل أهمها القوانين التي تنظم حياتهم، يقول القديس أوغسطين: "بل لكي يتكون المجتمع بشكل صحيح لا بد أن يعيش المجتمع تحت قانون واحد

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 18.

(2)- الكتاب المقدس: [رومية 8: 28].

(3)- زيدان عبد الباقي: التفكير الاجتماعي نشأته وتطوره، (دار السعادة، مصر، ط4، 2004)، ص: 33.

ينظم أمورهم، يرضونه ويخضعون له...⁽¹⁾. ثم بعد تبيينه لمفهوم المجتمع وكيفية تشكله، عمد القديس أوغسطين الى تبيين مستويات المجتمع في مراحل تشكله وهي أربعة عنده؛ أولها الاسرة وهي مجموعة من الأفراد تربط بينهم علاقة محبة وقربة واحترام، مجموعة الاسر هذه تتحد فيما بينها لتشكل المستوى الثاني وهو المدينة، ومجموعة المدن هذه تتشكل بينها علاقات قائمة على المصالح المشتركة فتتوحد لتشكل الكون الشبيه بالقعر الذي يمثل المستوى الثالث للمجتمع، المستويات الثلاثة الأولى تعيش في العالم الحالي، يقول أوغسطين: "البيت أولاً، ثم المدينة، فالكون الشبيه بقعر المياه"⁽²⁾، يخضعون جميعاً الى قانون واحد قائم على المصلحة المشتركة. اما المستوى الرابع فهو أسمى المستويات وارقاها وارفعاها عند القديس أوغسطين لأنه "مجتمع الملائكية القديسين"⁽³⁾، يسكنه الملائكة والقديسين والأنبياء والصالحين، واهل مدينة الله في الآخرة.

بعدما عرف القديس أوغسطين المجتمع وبين مستوياته اثناء تشكله، عمد الى طرح مفهوم عن الشعب الذي يمثله، فنجده يقول: على ان "الشعب جماعة عديدة تستند على حق معترف به وعلى مصالح مشتركة"⁽⁴⁾، فالشعب هو تجمع العديد من الكائنات العاقلة مستندة الى رابطة معينة والى حق معين نتيجة حب مشترك لنفس الأشياء، أي ان المجتمع المدني هو "مجموعة من الناس يربطهم تسليم عام بالحق ومجموعة من المصالح"⁽⁵⁾، وهذا الحق الذي تستند عليه الجماعة يمثل العدل عند القديس أوغسطين وسنتطرق اليه في المبحث التالي (مقومات الدولة عند القديس أوغسطين). وبهذا يمكن القول انه لكي يتكون الشعب ويتشكل "يكفي مشاهدة حشد من الناس قد اجتمعوا لمشاهدة عرض مسرحي"⁽⁶⁾، فحبهم لهذا الفنان الذي يشاهدونه هو ما وحدهم، وقد يصلون الى بغض

(1) - محمد احمد بيومي: تاريخ التفكير الاجتماعي، (دار المعارف العالمية، القاهرة، دط، 2003)، ص: 80.

(2) - القديس أوغسطين: مدينة الله، ج3، مصدر سابق، ص: 124.

(3) - المصدر نفسه، ص: 127.

(4) - المصدر نفسه، ص: 150.

(5) - ليوشتراوس، جوزيف كوريسى: تاريخ الفلسفة السياسية، تر: محمود سيد احمد، مر: إمام عبد الفتاح إمام، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، دط،

2005)، ص: 269.

(6) - علي زيعور: الفلسفة في أوربا الوسيطة وعصري النهضة والإصلاح، (دار الحياة، بيروت، دط، 1998)، ص: 177.

من لا يجبه، ومصالحهم المشتركة في ذلك هو نيل أكبر قدر من المتعة والترفيه. ان هذا الاجتماع في نظر القديس أوغسطين بين الناس في مجتمع واحد لم يأتي بالصدفة بل ان العناية الالهية هي التي تسيره لأجل غاية معينة لا تدركها الا حكمة الله البالغة، ولا يرفض القديس أوغسطين الصدفة في هذا المجال فقط بل هو يرفضها بالمطلق فهو يرى ان ما نسميه مصادفة انما هي قدرة الله الخفية والتي لا تدركها عقولنا، يقول: "الله الواحد الحق يرتب الأمور ويديرها كما يشاء، فهل هي غير عادلة أسباب سلوكه ذاك لكونها خفية"⁽¹⁾، وبهذا نعود الى القول عن المجتمع بانه "ليس جمعا طارئا او وليد الصدفة..."⁽²⁾، بل مشيئة العناية الإلهية التي تأمر العلل وتدبر الغايات.

اذن الشعب هو مجموعة الناس الذين يشكلون المدينة؛ أي اتحاد وتشارك عدد من الكائنات الذكية العاقلة، مجتمعين بفعل إرادة ورغبة في امتلاك مشترك أساسه الحب لما يملكون. واساس التلاؤم بين افراد المجتمع يكون وفق عاملين رئيسيين هما الحب ثم الصداقة؛ فالحب يأتي أولا لأن ذاك الحشد من الناس الذين حضروا لمشاهدة العمل المسرحي العامل الأساسي الذي جمعهم هو حبهم للفنان الذي يقدم العرض وحبهم لعمله الفني الذي يقدمه "والدليل انه كلما زاد اعجابنا بهذا الفنان اكثرنا من التصفيق له بغية جعل الاخرين يصفقون له، وجعل عددهم أكثر فأكثر، وقد نكره من لا يصفق ولا يوافقنا"⁽³⁾، وهكذا كلما تطور الحب كلما زاد الاتحاد بين افراد الشعب، و"من يحب الله فإنه يجد نفسه بحكم هذا الامر في علاقة مجتمعية مع سائر من يجبه"⁽⁴⁾، فحب الله هو الحب الذي يدعوا اليه القديس أوغسطين كما تدعوا اليه الديانة المسيحية، انه الحب الذي سيقود الشعب المسيحي الى إقامة حضارة ابدية يحكمها السيد المسيح، تسود العالم في نهاية التاريخ وفي الاحرة. اما الصداقة في الأداة الثانية التي تساهم في لحمة المجتمع والقديس أوغسطين يدعوا الى الصداقة الشريفة القائمة على الحب، ويحذر من الإفراط في الصداقات الغير مؤسسة عليه؛ لان الصداقات الغير مؤسسة على الحب دائما يشوبها الخيانات و" ما من خيانة

(1) القديس أوغسطين: مدينة الله، ج 1، مصدر سابق، ص: 263.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص: 91.

(3) علي زيعور: الفلسفة في أوربا الوسيطة وعصري النهضة والإصلاح، مرجع سابق، ص: 227.

(4) المرجع نفسه، ص: 227-228.

اشد على الانسان من تلك التي تغلف بالمحبة او القرابة، يمكن للفطنة ان تحذر عددا معروفا، لكن خدعة مخفية وعائلية ليست فقط على مقربة منا بل انها تلفنا قبل ان نتمكن من ان ننظر ونعرف ... او من ذا يعي دوما الاعيب الصداقة المبطنة بعين ساهرة؟⁽¹⁾.

وهكذا فان المجتمع يتكون بالحب المشترك ويتماسك بالعلاقات الداخلية بين افراده، وبذلك تتشكل الدولة. ولما بين القديس أوغسطين كيفية تشكل المجتمع ونشوء الدولة عمد الى توضيح اهم المقومات التي ينبغي ان تقوم عليها هذه الدولة في تنظيم حياتها السياسية والاجتماعية خاصة وفي شتى المجالات الأخرى عامة، وهنا يجدر التوقف وطرح التساؤل التالي فيما تمثلت هذه المقومات في نظر القديس أوغسطين؟

(1) - القديس أوغسطين: مدينة الله، ج 1، مصدر سابق، ص ص: 121-122.

المبحث الثاني: مقومات الدولة

أسس القديس أوغسطين نسقا فلسفيا محكما في السياسة والاجتماع انطلاقا من عقيدته المسيحية وتنوع مصادره الفكرية بحكم اتساع الرقعة الجغرافية للإمبراطورية الرومانية التي تشبعت من مختلف الثقافات العالمية، كما ان الاضطرابات والتغيرات التي شهدتها الإمبراطورية الرومانية في عصره قد ساهمت بشكل كبير في بلورة هذا النسق الفلسفي عنده. حيث نجد ان القديس أوغسطين يرى انه لكي تنشأ الدول على أصولها وتزدهر وتتطور يجب ان تتوفر على جملة من المقومات الاجتماعية، وللحفاظ على الترابط والتناسق الداخليين بين افرادها، فتكلم عن العدالة والقوانين، واللغة والمؤسسات، بل نجده قد ذهب الى ابعد من ذلك ليتكلم عن الملكية والتملك والرق والعبودية.

أولا: مقومات سياسية

العدالة: تكلم القديس أوغسطين عن العدالة كأول مقوم من مقومات الدولة لما عرف الشعب على انه جماعة عديدة تستند الى حق معين وتشارك فيه، فهذا الحق عبر عنه بالعدالة ف"الدولة لا يمكن ان تساس بلا عدالة، ومن ثم، حيث لا عدالة صحيحة لا يمكن للحق ان يكون"¹. ويعرف العدالة على انها "هاته الفضيلة التي تعطي كل ذي حق حقه"²، ولما كانت العدالة هي إعطاء كل ذي حق حقه، فمن العدل أيضا ان يكافأ الانسان على اعماله الصالحة ويعاقب على خطاياها"³، وبذلك يكون القديس أوغسطين قد عرف العدالة مني جانبيها السلوكي والأخلاقي، سواء تعلق الامر بحقوق الخالق او بحقوق المخلوق، وهناك نوعان من العدالة عند القديس أوغسطين، عدالة الهية منصفة، وعدالة بشرية مجحفة، وينبغي على الثانية ان تستند على الأولى لكي تتجنب الوقوع في الخطأ قد المستطاع، ف"تلك الاحكام التي يصدرها بشر ضد بشر، انها لأحكام تبقى ضرورية على مستوى المدن أيا يكن السلام الذي به يتمتعون، وما راينا فيها؟ يالها من احكام يؤسف لها، وهل من عجب؟ أناس يحكمون

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج3، مصدر سابق، ص: 150.

(2)- المصدر نفسه، ص: 116.

(3)- المصدر نفسه، ص: 238.

دون ان يستطيعوا رؤية ضمير من يحكمون عليهم"¹، فالقاضي الذي يمثل العدالة الأرضية عند القديس أوغسطين لما يحكم على متهم معين، يحكم عليه بحكم الظاهر فقط ولا يدري بضمائر المتهمين، وهذا ما قد يوقعه في الظلم. وعلى النقيض من ذلك العدالة الإلهية التي يمثلها الله فهي عدالة منصفة تستند الى حكمة بالة والى علم بالظاهر والضمائر. ولكي يخرج الانسان من أعباء وجهله ويجنب أخطاء عليه ان يرجع ويستند الى الله فهو وحده الكفيل بأن يريه طريق الصواب و "وكم يكون الانسان اعقل وأجدر به ان يعترف بالشقاء البشري في تلك الضرورة فيكرهها. بجد ذاتها. وإذا كان على شيء من التقوى يصرخ الى الله قائلاً (اخرجني يا رب من شدائدي). [مزمور 18/24]"²، فالعدالة الحققة هي تلك العدالة الموجودة في مدينة الله يقول القديس أوغسطين: "العدالة الحقيقية قائمة فقط في هذه المدينة التي أسسها وملك عليها المسيح"³، وليست تلك العدالة التي يتغنى بها الرومان حين يسمونها مساواة بدعوى الإنسانية.

القانون: بين القديس أوغسطين بين نوعين من القوانين في العالم، فهناك قانون طبيعي (إلهي)، وقانون وضعي (بشري) يستند الثاني في تشريعاته على الأول. القانون الطبيعي مصدره الله يسري على اهل المدينة السماوية، يحكم به المؤمنون ويخضعون له، والكنيسة هي التي تمثله في المدينة الأرضية. كم ان هذا القانون يسري أيضا على الكائنات الغير حية في الأرض (الجمادات) وعلى الكائنات الغير عاقلة (الحيوانات)، فالله يسير شؤونها ويدبر امورها. وهنا نجده يشير الى ضرورة فصل الله عن الكون؛ فليس الله جزء من الكون، لان ذلك لا يليق به. بل الله خالق الكون وحاكمه ومدبره، فيجب الفصل بين الطبيعة المخلوقة والله الخالق لها. وبذلك يرفض كل العقائد القائلة بوحدة الوجود، وينفي كل محاولة لعبادة الطبيعة او أي شيء فيها مهما كان، دون عبادة الله وحده فالله هو "مبدأ كل ايلاد طبيعي، أيا كان نوعه وثنمه ... خلق الجسد بما هو عليه ... هو الذي وهب النفس الغير العاقلة الذاكرة والحس

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج3، مصدر سابق، ص: 122.

(2)- المصدر نفسه ص: 124.

(3)- المصدر نفسه، ص: 94

والقبالية، ووهب العاقلة العقل والحرية ... فهل يعقل ان يكون ترك ممالك البشر ورؤساءهم وخدمهم خارجا عن عنايته"1.

اما القانون الوضعي (البشري) فيعرفه على انه " قاعدة للحياة مهمتها الوحيدة المحافظة على سلامة الحياة والدولة"2، او هو " هو قاعدة للحياة يفرضها الانسان على نفسه والآخرين لأجل غاية"3. مكان تطبيق القانون الوضعي هو مدينة الأرض والشور والزمان، يكون مخطأ في كثير من احكامه لأنه نابع من الطبيعة البشري التي تميل الى الخطأ والعدمية. والقانون الوضعي ينبغي ان يستند في احكامه الى القانون الطبيعي؛ أي الى التعاليم المسيحية حتى يمكنه من تطبيق أكبر قدر من العدل، واجتناب كثير من الخطأ، فالله لما خلق الشعوب والقبائل لم يتركهم هملا بل قيض لهم من رحمته من أنفسهم من يسن لهم القوانين ويعينهم على أدائها.

للقانون الوضعي ضوابط أخلاقية، أولها: يجب ان يصدر عن القانون الإلهي، فليس القانون الجائر قانونا، فلا يمكنه ان يستمد لنفسه شرعية ولا ان يفرض على الرعية واجبا، فجوهر القانون هو العدالة لا منفعة الأقوى، واصل استخدام القوة في تطبيق القانون الوضعي هو شرعية فرضتها الخطيئة الإنسانية الأولى. ثانيا: القانون الوضعي لا يتناول الا الظاهر من الأفعال، ولا يحكم عن السرائر التي هي من علم الله، فيغض الطرف عن بعض الشرور، ليتفادى شرورا أعظم. ثالثا القانون الوضعي خاضع لظروف المكان والزمان؛ فهو متغير على حسب تغير أحوال الرعية واحوال الإنسانية الخاطئة، فلا ينبغي لنا اتهام شعب بالظلم إذا بدا لنا اختلافهم في تطبيق القوانين عن شعوب أخرى، فالعدالة ثابتة والناس متغيرون4.

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 207

(2)- اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، مر: فؤاد زكريا، (المطبعة الثقافية، مصر، دط، 1971)، ص: 192.

(3)- المرجع نفسه، ص: 193.

(4)- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، دط، 2012)، ص ص: 50-51.

اللغة: بعد العدل والقوانين تحتاج الحضارة الى دعامة أساسية للحفاظ على العائلات الاجتماعية داخل الدولة هذه الدعامة متمثلة في اللغة، لان " اختلاف الالسنة يجعل الانسان غريبا عن الانسان"¹؛ فلكي تحافظ الحضارة على تماسكها يجب ان يفهم شعبها بعضه بعضا، لأنه اذا جهل افراد الدولة لغة بعضهم كانوا بمثابة " مجتمع من الحيوانات الخرساء ومن اجناس مختلفة"²، فتستحيل مبادلة الأفكار فيما بينهم "بسبب تباين اللغات"³، بل ويصعب ذلك تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية من طرف الحاكم، لهذا كانت أولوية اللغة المشتركة من أولويات إقامة الحكم السليم في المدينة او الدولة او الحضارة على حد سواء، يقول القديس أوغسطين: "فيبقى التجانس في الطبيعة عاجزا عن الربط فيما بينهما كبشر، ويبدو ان الانسان هو أكثر انسجاما مع كلبه منه مع الانسان الغريب، غير انهم يقولون ان مدينة أنشأت الإمبراطورية لم تفرض سيطرتها وحسب بل أيضا سيطرت لغتها رسميا واجتماعيا على الشعوب المغلوبة"⁴، فالدولة اذا ينبغي لها ان تمتلك لغة رسمية موحدة يفهمها كل مواطنيها، تكون محكمة مضبوطة تسهل على العمة الحياة الاجتماعية، وعلى الحاكم الحياة السياسية.

الملكية والتملك: وعلى الدولة إقرار الملكية الفردية وحماتها، كالشراء والبدل والهبة والإرث، فالمالك الحقيقي

هو لله خالق كل الأشياء، فالحياسة المشروعة للأشياء تحول المرء الحق في امتلاكها ف" الملكية للذات الإلهية، فالله هو الملك الحقيقي، وهو الذي يفرض هذا الحق على الجنس البشري"⁵، أما الحياسة بطرق أخرى غير مشروعة على ملك الغير كالنهب والسرقة والاعتصاب فعلى الدولة محاربتها والتصدي لها والمعاقبة عليها "...وعلى الحكومة ان

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج3، مصدر سابق، ص: 124.

(2)- المصدر نفسه، ج3، ص: 124.

(3)- المصدر نفسه، ج3، ص: 124.

(4)- المصدر نفسه، ج3، ص: 125.

(5)- أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعي دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية، (دار النهضة، بيروت، دط، 1981)، ص: 157.

تحارب وسائل التملك غير الشرعية كالسرقة والاعتصاب...¹، وهنا نجد ان القديس أوغسطين قد فرق بين الملكية والتملك؛ فالملكية هي الحيازة المشروعة اما التملك فهو نقيضها فيكون بطرق ملتوية وغير شرعية، وكما اخذت الملكية عنده مشروعيته من الكتاب المقدس، فالتملك هو الآخر قد أخذ عدم مشروعيته منه أيضا. ويرى القديس أوغسطين انه لو أريد توزيع الخيرات والمناصب على قدر العدالة والكفاية والمساواة، لتعرض النظام الاجتماعي لتقلبات لا تحصى في المجال الاجتماعي والسياسي، لأن مثل هذا التوزيع من غير الممكن تحقيقه بسبب الطبيعة الإنسانية المخطئة التي "لا يمكن للإنسان ان يعوزها الى إرادة له شريرة، بل الى جهل فيه مطبق ثم الى الضرورة الآمرة في المجتمع"²؛ فهذا اللاعدل الإنساني وهاته المفارقات في النظام وعدم المساواة في قدر الامتلاك بين الناس، راجع الى الخطيئة الإنسانية الأولى، شأنها شان باقي الآفات والالام الزمنية، لذلك فرق الله بين الناس في قدر الامتلاك فنجد الغني غنا فاحشا، والفقير المعدم، وقد نجد المتوسط بين هذا وذاك على حسب حظ كل انسان من العناية الإلهية.

شرع القديس أوغسطين للملكية من الكتاب المقدس الا انه لم يتركها ملكية مطلقة، بل قيدها وحذر من الاخطار التي قد توقع فيها صاحبها إذا بلغ درجة من الغنى والثراء، فقد "ترد للذهن رذيلة البخل المتعلقة بالتملك"³؛ فالإنسان لما يبلغ مبلغا من الثراء قد تنازعه نفسه الشريرة والشيطان المتسلط عليه، ينازعانه في إنفاق ماله والتصدق منه فيصبح همهم الوحيد هو جمع المال وتخزينه بخلا منه، والبخل هو يقول القديس أوغسطين: "ما هو البخل؟ ان

(1) عبد الله عبد الرحمان: تطور الفكر الاجتماعي، (دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، دط، 1999)، ص: 113.

(2) القديس أوغسطين: مدينة الله، ج3، مصدر سابق، ص: 122.

(3) علي زيعور: أوغسطينوس، مرجع سابق، ص: 238.

يطمع الانسان أكثر من كفايته"¹، فيكون البخل بذلك "هو ذلك الاستعداد في النفس الذي يرفض ان يشارك في ملكية وان يوزع، وانما هو يود ويجمع لأجل ذاته ويستولي على أشياء ويتملكها كما لو انها لم توجد الا لإشباع شهوة شخصية"². ولكي نتخلص من جشع البخل ومن سطوة النفس علينا ان نتحلى بالفضائل التي سندرك من خلالها ان الأملاك انما هي فقط خيور زمنية جعلت لتكوت وسيلة لبلوغ غاية أسمى هي عبادة الله، والسعي الى بلوغ الكمال البشري، وعلى الانسان ينازع نفسه في هذه الممتلكات ولا يتعلق بها فعندها كلما فقدتها ازداد قوة وصلاحا.

الرق والعبودية: يرى القديس أوغسطين ان نظام الرق والعبودية هو نظام إلهي، وهو احد نتائج الخطيئة

الأولى، ولن يزول هذا النظام الا في مدينة الله او الى غاية الدينونة الأخيرة، يقول الدكتور محمد الخشاب: "فاذا نظرنا اليه باعتباره نتيجة عقابية وجزائية لما وقعت فيه الإنسانية من خطيئة فهو نظام طبيعي يتماشى مع العدل الإلهي في إيقاع الجزاء الرادع على البشرية نتيجة خطئها، وما دامت الخطيئة لازالت باقيا في المجتمعات البشرية فسيضل يوجد الألم والمرض والمصائب والآفات وليس الرق الا احدي مظاهرها الاجتماعية"³، بل وذهب الى حد التحذير من محاربة هذا النظام لان محاربهه بمثابة محاربة القوانين الإلهية وقد تؤدي الى تقلبات غير محمودة العواقب على كافة المستويات الإنسانية سواء الأخلاقية منها او الاجتماعية او الاقتصادية بل وحتى السياسية، يقول الدكتور مصطفى صلاح الفوال: "قيم نظام الرق من خلال ما يؤديه من وظائف اقتصادية واجتماعية وسياسية، و انتهى الى ان محاربة

(1)- القديس أوغسطين: خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، مصدر سابق، ص: 350.

(2)- علي زيعور: أوغسطينوس، مرجع سابق، ص: 238

(3)- أحمد الخشاب، مرجع سابق، ص ص، 157-158.

الفصل الثاني: الفكر السياسي عند القديس أوغسطين

ذلك النظام بهدف تغييره سينتهي بغير شك الى ثورات وانقلابات اجتماعية¹. وبالرغم من دعم القديس أوغسطين لنظام الرق لم يمنعه من المناذاة الى المساواة فيه، سواء بين الرقيق فيما بينهم او بين العبد وسيده، الى المساواة نابعة من مرجعية القديس أوغسطين دائما الا وهي الكتاب المقدس، لذلك نجده يقول: " ليس الناس بأجمعهم متساوين في الإنسانية؟"².

في الأخير يمكن القول ان القديس أوغسطين قد استطاع ان يبرز اهم المقومات الأساسية التي ينبغي ان تتوفر في الدولة لكي تقوم على أصولها، معتمدا في ذلك على تشعب مصادره الفكرية وتجربته المعيشية التي تمثلت في الأوضاع المضطربة للحضارة الرومانية مما أكسبه خبرة كبيرة في مجال السياسة والاجتماع. كما انه قد ربط كل هذه المقومات بفكرته الأساسية المتمثلة في نظرية العناية الإلهية.

لكن الى من تعود مهمة السهر على تطبيق وتسيير هذه المقومات من خلال النظرة الأوغسطينية؟ هل تعود

الى السلطة الإلهية بناءً على فكرة العناية الإلهية؟ أم الى السلطات الزمنية المتمثلة في سلطة الحاكم؟

(1) صلاح مصطفى الفوال: سيولوجيا الحضارات القديمة، (دار الفكر العربي، القاهرة، دط، 1982، ج1)، ص: 292.

(2) القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 252.

المبحث الثالث: مصادر السلطة في الدولة

عاش الدين المسيحي فترة طويلة من القهر والاضطهاد امتدت من عهد (الامبراطور نيرون حوالي سنة 64م الى غاية بدايات عهد غاليريوس حوالي سنة 300م)¹، حيث لقي المسيحيين فنونا من العذابات والويلات على يد الوثنيين من اهل روما ورؤسائهم حيث "كانوا يضعون بعضهم في جلود الحيوانات ويطرحونهم للكلاب تنهشهم، وصلبوا بعضهم، والبسوا بعضهم ثيابا مطلية بالقار وجعلوهم مشاعل يستضاء بها..."². وكانت هذه الطبقة من المسيحيين تتكون من الطبقات الفقيرة من "سفلة القوم، الفلاحين والميكانيكيين، من الأطفال والنساء، من المتسولين والعبيد"³، وبالرغم من هذه الويلات والعذابات التي لاقاها المسيحيين، ضلوا صابرين على ما هم عليه من الايمان والتقوى، مما جعل كثيرا من طبقات المجتمع ترأف لحالم بل وتعتنق المسيحية، وكان ممن آمنوا امرأ وأعيان من الدولة، فزاد عدد المسيحيين مع مرور الوقت وصار يسمع صوتهم في بلاط الحكم، فأضطر هذا الامبراطور غاليريوس الى الرضوخ لأصواتهم والتسامح معهم، والاعتراف بالمسيحية كديانة في الإمبراطورية و"اصدر هذا الأخير- في عام 311م- مرسوما ملكيا بوجوب التسامح مع المسيحية والاعتراف بها دينا شرعيا، وسال المسيحيين ان يدعوا له في صلواتهم نظير رحمته"⁴، يقول غاليريوس في مرسومه "..... لقد اتجهت ارادتنا الى بسط مزايانا المألوفة على هؤلاء الافراد المسيحيين التعساء، ولذلك نرخص لهم بإعلان آرائهم الخاصة في حرية تامة، وفي عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف أو ازعاج شريطة أن يظهروا دوما الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائم، وإنا لنأمل أن يكون تسامحنا دافعا الى الصلاة والتضرع الى الاله الذي يعبدوه من أجل سلامتنا ورحائنا وسلامتهم ورحائهم وسلامة الجمهورية ورحائها"⁵. الا ان النقطة التي تعد بحق منعرجا حاسما في تاريخ الديانة المسيحية، هي تلك الواقعة التي وقعت خلال

(1)- أحمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، (دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1961)، ص: 20.

(2)- المرجع نفسه: ص ص: 20-21.

(3)- ادوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، تر: محمد علي أبو درة، مر: احمد نجيب الهامش، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ط2، 1997، ج1)، ص: 283.

(4)- ويل ديورانت: ابطال من التاريخ، تر: سامي الكعكي-سمير كرم، مر: عمر الايوي، (دار الكتاب العربي، لبنان، دط، دس، ج1)، ص: 217.

(5)- سعيد عمران محمود: معالم تاريخ اوربا في العصور الوسطى، (دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، دس)، ص: 38.

عام 312م، حيث اعتنق الملك قسطنطين الديانة المسيحية¹ وإعلانه مرسوم ميلانو 313م الذي جاء في بعض بنوده "... ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يناسبه..."². ولم يتوقف عند حد اعتناقها بل وقد اقرها دينا رسميا للإمبراطورية الرومانية، و" رفع المسيحية على عرش العالم الروماني"³، ممثلة في شخص الكنيسة كهيئة دينية في الدولة، لها من السلطات ما يؤهلها الى منازعة السلطات السياسية في الإمبراطورية، مما أحدث تعارضا بينهما في كثير من الأحيان حول كثير من المسائل والتشريعات، وبذلك نشأة ضرورة ملحة لتحديد العلاقة بين الكنيسة والحكومة في الدولة.

أولا: علاقة الكنيسة بالدولة قبل القديس أوغسطين

تراوحت العلاقة بين الكنيسة والدولة في بدايات مراحل تطورها بين السيطرة المطلقة للدولة وبين التوفيق بينها فالقديس بولس كان يمثل الرأي القائل بضرورة خضوع "كل نفس للسلطين الفائقة، لأنه ليس سلطان الا من الله، وللسلطين الكائنة هي مرتبة من الله، حتى ان من يقاومون السلطان يقاومون ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة. فإن الحكام ليسوا خوفا للأعمال الصالحة بل الشريرة. افتريد الاتخاف السلطان؟"⁴؛ فكل احكام السلطين وقراراتهم هي قرارات صائبة لان مصدرها هو الله، بل وهي اعمال ضد الشر في حد ذاته. أما القديس أمبرواز فقد "نقل عنه ان مرد القصور الى الامبراطور ام الكنائس فمردها الى الأساقفة"⁵؛ فهو على العكس من القديس بولس اذ يرى بضرورة الفصل بين الكنيسة والدولة مع خضوع الدولة للكنيسة في حال وقوع تعارض بينها لان الدولة تمثل الحياة الخارجية والمصالح المادية والجزاءات الجسدية، فهي إذا تمتاز بالظلم والحرب في اغلب الأحيان، بينما تمثل الكنيسة المصالح الروحية والحياة الداخلية والجزاءات النفسية، فهي تمتاز بالعدل والسلام. كما ان قضاء

(1) ويل ديورانت، المرجع السابق، ص: 217.

(2) سعيد عمران محمود: معالم تاريخ اوربا في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص: 39.

(3) المرجع السابق، ج 2، ص: 588.

(4) الكتاب المقدس، [رومية 13: 1-3].

(5) نصر مهنا محمد: في تاريخ الأفكار السياسية والتنظير للسلطة؛ (المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، دط، 1999)، ص 111.

الكنيسة تمتد على الكون بدل أن يكون محدودا بشعب معين او زمن معين في حين أن الدولة ليست الا حقيقة متغيرة ومؤقتة ومهيأة للاختفاء عندما تأتي مملكة الله.

ثانيا: علاقة الدولة بالكنيسة في عهد القديس أوغسطين

اما القديس أوغسطين فقد نحى منحاً مختلفاً عن سبقه في تحديد العلاقة بين الكنيسة والدولة، فهو في بادئ الامر يبين ان "الله مبدأ كل سلطة حتى في المدينة الأرضية"¹. لأنه لا توجد "سلطة لشخص على آخر بموجب القانون الطبيعي، فالسلطة هي تفويض من الله، او تفويض إلهي لممارسة السلطة"²، فالله خلق الخلق عبر نظام عنايته الإلهية، وهاته العناية فرضت سلطات أخرى اقل منها في نظام معين مستند في الأساس الى سلطة مطلقة فوقية هي سلطة الله. ثم انه يفوض للناس ان يختاروا من يحكمهم منهم، وهذا الاختيار يكون في نظرنا نحن البشر "بالحظ او بالصدفة. او بالوراثة او بالانتخاب. الله لا يعين هذا النظام من الحكم او ذاك، ولا يدل على شخصية هذا الرئيس او ذاك، فهذه أمور تفضيلية المهم فيها هو جوهر السلطة الموجودة في الوظائف السياسية، وهو جوهر يدين لله بتعيينه وتسميته"³. والله هو الذي خلق التسلسل في السلطة فهو مصدرها والناس هم أهلها في عالم المخلوقات. فالله لما خلق الانسان سخره لنفسه، وسخر لهذا الانسان باقي ما في الأرض من دواب ونبات وجماد، وقد استلهم القديس أوغسطين هذا من جوهر الدين المسيحي، الكتاب المقدس اذ قيل في سفر التكوين: "نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر، وعلى الطير في السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وجميع الدبابات التي تدب على الأرض"⁴، ثم سلط بعض البشر على بعض، فيتخذ بعضهم بعضا اربابا، ويتخذ بعضهم بعضا عبيدا، لان "العبودية من الناحية السياسية كالفقر من الناحية الاجتماعية والمرض من الناحية الصحية، محنة

(1) علي زيعور: أوغسطينوس، مرجع سابق، ص: 228.

(2) سعيد عمران محمود: النظم السياسية عبر العصور، (دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1999)، ص: 175.

(3) المرجع السابق، ص: 228.

(4) الكتاب المقدس، [سفر التكوين 1: 26]

قد يمر بها الانسان على الارض، فهذه كلها آلام جسدية مادية او ضروب من العذاب الأرضي، وتلك هي طبيعة المملكة الدنيوية. فلما كان مجال الجسد ومجال الروح مفصولين تماما، فعلينا الا نبتئس كثيرا لمحن الجسد، ولما كانت مآسي الحياة البشرية من صنع البشر، وهي تختلف بطبيعتها عما تصنعه السماء، فعلى المواطنين ان يتحملوا حكم البشر، وبالمثل على العبيد تحمل ما هم فيه¹. اذن فهذا التسلسل في السلطة قد فرضته علينا الخطيئة الأولى لسيدنا آدم- عليه السلام- في البدء، ثم فرضته الخصائص والسماوات التي خلقنا الله بها. فالله حاكم كل شيء لان صفاته وخصائصه أسمى واعلى من صفات وخصائص أي شيء؛ فهو يمتاز بالعقل المطلق والذكاء المطلق، ثم سلط الله الانسان على سائر المخلوقات بعده لأنه الاعقل والاذكى، ف"العقل والذكاء يرفعنا نحن البشر فوق جميع الحيوانات؛ الإنسان هو وحده" الحيوان العاقل، أفضل حيوانات الأرض وانبلها²، بل ويرفع بعض البشر على بعض، فالتناس الأكثر ذكاء والأوفر عقولا أولئك يحق لهم التسيّد والتسلط على من دونهم في العقل والحكمة والذكاء.

ولما بين القديس أوغسطين المصدر الأول للسلطة الأعلى هو الله، التفت الى السلطة الأرضية محاولا تحديد العلاقة فيها بين الكنيسة والدولة، الا انه وقع في بداية الامر في صعوبات عديدة تمثلت في نواحي كثيرة، أولها التضارب الشديد الحاص بين الكنيسة والدولة في تحديد الأولوية في التشريع، ثانيا تزعزع المسيحية من أركانها، اذ بدأ بعض الحكام يتضمرون من تدخل الكنيسة الدائم في شؤون الحكم مما اوغل قلوب الاباطرة على الكنيسة بما فيها، كما لاحظ القديس أوغسطين ظهور كثير من الخوف عند الطبقة المتدينة من المسيحيين في تطبيق شرائعهم امام العامة. فما كان من القديس أوغسطين الا ان "دعا الى علاقة براغماتية بين كنيسة الله ودولة البشر، هي علاقة أساسها التعايش السلمي"³، لرأب الصدع الذي احدثه التصور السابق الذي تصورته المسيحية لعلاقة الكنيسة بالدولة. وهذا التعايش السلمي قائم على المصالح المشتركة بين الطرفين، فالدولة تمهد للكنيسة للتبشير ونشر الديانة

(1) - إمام عبد الفتاح إمام: الطاغية، (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1984)، ص: 136.

(2) - القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 389.

(3) - زينب محمود الحضري: مرجع سابق، ص: 168.

المسيحية في ارجاء البلاد، سواء بالمال او بالعتاد، كما تساعدها في حربها " ضد الهراطقة والمارقين والمنشقين عليها"¹. في حين ان الكنيسة تساعد الدولة على الحفاظ على مكانتها وثباتها، فتهتم بالحفاظ على السلام من خلال الدعوة الى الطاعة العمياء للملوك، وتحريم التمرد ضدهم، والقيام بالوعظ وإقامة الدعوي " لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب، لكي نقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار"². فالكنيسة والدولة في نظر القديس أوغسطين بمثابة الروح والجسد كل منهما يحتاج الى الاخر في علاقة تبادلية للمنافع، ففي "كل انسان نظام عادل وطبيعي، به تخضع النفس لله، والجسد للنفس، وانطلاقا منه تخضع النفس والجسد لله"³؛ وهكذا الحال في الدولة وعلاقتها بالكنيسة فيجب ان تكون "مشاعا بينهما، مع ضمان استقلال كل هيئة طالما ان الدولة لا تمس مصالح واستقلال الكنيسة"⁴ والعكس طالما ان الكنيسة لا تمس مصالح الدولة. وبالرغم من كل هذا نلاحظ بعض الغموض في الرأي الأوغسطيني حول من له السيطرة على الحكم هل هو للكنيسة ام للدولة؟ لأننا تارة نجد ميل الى ضرورة سيطرة الكنيسة، وذلك حين يشبهها بالنفس ويشبه الدولة بالجسد، فهو دائما ينادي بضرورة خضوع الجسد للنفس لتصلح حالها. وتارة ثانية نجد يدع الى إقامة علاقة برغماتية قائمة على المصالح المشتركة، في إشارة منه الى فصل واضح بين الدولة والكنيسة فلا تتدخل الدولة في الكنيسة ولا الكنيسة تتدخل في الدولة. الا انهم يقيمون علاقات بينهما للحفاظ على المهادنة والتعايش السلمى الذي كان ينادي به، فيظهر الحال كأنما هناك دولتين في دولة واحدة، فتصبح دولة الكنيسة وهي التي تهتم بسكان مدينة، الله وتشرع لهم، وهاته الدولة لا تتدخل فيها الدولة الأخرى، التي تهتم بأمور المدينة الأرضية، وتشرع لها، والتي يجب على دولة الكنيسة ان لا تتدخل فيها بدورها. لكن الغالب على رأي أوغسطين في اغلب دعاويه وكتابات وآرائه، انه كان يساند حكم الدولة التام، مستندا في ذلك الى الكتاب

(1)- زينب محمود الخضري، مرجع سابق، ص: 171.

(2)- الكتاب المقدس، [رسالة بولس الأولى الى تيموثوس 2: 2].

(3)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج3، المصدر السابق، ص: 116.

(4)- نصر مهنا: علم السياسة، (دار غريب، القاهرة، دط، دس)، ص: 134.

المقدس، ففي انجيل يوحنا لما حكم بيلاطس* على يسوع بالصلب وقال بيلاطس ليسوع: "(الست تعلم ان لي سلطانا ان أصلبك وسلطانا ان أطلقك؟). أجاب يسوع: (لم يكن لك عليا سلطان البتة، لو لم تكن قد أعطيت من فوق...¹). في إشارة الى ان المسيح قد اطاع بيلاطس بحكم ان سلطته من الله، فاستسلم المسيح للصلب. وعلى هذا الأساس يرى القديس أوغسطين انه على كل المواطنين ان يخضعوا الى الحاكم مهما كانت افعاله، ومهما كانت الدرجة التي بلغ اليها من الظلم والقسوة، ومهما كانت الأخطاء التي يقترفها الحاكم فعلى المواطنين التجاوز وغض الطرف عنها. وعليهم ان يؤديوا ما يفرض عليهم من حكامهم فيعطوا الجميع حقوقهم، "الجزية لمن له الجزية. الجباية لمن له الجباية. الخوف لمن له الخوف. والاكرام لمن له الاكرام"²؛ فيصبروا على هذه الحال الى غاية يوم الدينونة الأخيرة.

اذن يمكن القول ان مصدر السلطة عند القديس أوغسطين قد استند في الأصل الى مفهومه عن العناية الإلهية، فكل سلطة عنده مصدرها من الله، فالله مبدأ كل تشريع ومفوض كل سلطة، ومنه تنبثق باقي السلطات في الكون، الا ان الله لم يحدد للأمم نوع هذا الحكم او ذاك، ولم يسمي هذا الحاكم او ذاك. فالله قد اعطى لكل سلطة شرعيتها الخاصة من غير ان يفصل في كيفية ممارستها، او طرق العمل السياسي فيها، غير انه يخضع تلك الممارسات الى جوهر أساسي هو عنايته الخاصة التي لا يعيها الا المؤمنون بالله. اما فيما يخص كيفية ممارسة السلطة عند القديس أوغسطين، والعلاقة بين الكنيسة والدولة فإنه يرى بوجود إقامة مهادنة ومسالمة بين الدولة والكنيسة، مقيما العلاقة بينهما على مبدأ التعايش السلمي. فتحارب الدولة لنصرة الكنيسة، وتدع الكنيسة لطاعة ومحبة الحاكم والدولة. وتحريم الخروج عنه ومعارضته اذ يعد هذا معارضة لحكم الله في الأرض. وهكذا يكون أوغسطين قد ضرب عصفورين

* بيلاطس البنطي او بنطيوس بيلاطوس، ولد في 10 قبل الميلاد، تولى حكم مقاطعة ايوديا او اليهودية في عهد القيصر الروماني طيباريوس، وتذكره

الانجيل الأربعة على انه هو من تولى محاكمة المسيح وصلبه.... انظر الكتاب المقدس: انجيل يوحنا الاصحاح 19 الآية 11.

(1)- الكتاب المقدس، [يوحنا 19: 11].

(2)- الكتاب المقدس، [رومية 13: 8].

الفصل الثاني: الفكر السياسي عند القديس أوغسطين

بمجرد واحد فمن جهة قد حافظ على وحدة الشعب المسيحي، وهذا كان هدفه الأساسي من الانخراط في المسائل السياسية. ومن جهة ثانية، استعمل الدولة وقوتها المادية في سبيل نشر تعاليم المسيحية، ومحاربة المعارضين لها، والمنشقين عنها، والحفاظ على حرية وسعادة سكان مدينة الله في الدولة الأرضية الى غاية عودة المسيح المخلص، الذي سيقود مدينة الله الى السيادة على جميع العالم.

الفصل الثالث: القيام والسقوط الحضاري

المبحث الأول: أسباب ازدهار الحضارة

المبحث الثاني: أسباب سقوط الحضارة

المبحث الثالث: السلام الابدي وحتمية الصراع

تمهيد

أولا يجدر الإشارة الى ان القديس أوغسطين يعتبر ان العالم في تاريخه منذ القدم الى العهد الذي عاش فيه، قامت فيه حضارتين عظيمتين رئيسيتين فقط، هما: "المملكة الآشورية والامبراطورية الرومانية، وكلتاها مختلفتان في المكان والزما. وإن كانت احدهما ظهرت قبل الأخرى، فتلك في الشرق وهذه في الغرب، كما كانت نهاية الواحدة بداية للأخرى وسائر الدول الأخرى أو ممالك الأرض، كانت تقريبا خاضعة لتينك الامبراطوريتين"⁽¹⁾. الا اننا نجده يركز كل التركيز في كافة كتاباته على الحضارة الرومانية، وهذا راجع في نظري الى سببين رئيسيين هما: أولا نذره الذي نذره على نفسه للدفاع عن الدين المسيحي ضد الوثنيين من اهل روما، الذين كانوا يدعون الى معادات المسيحية باعتبارها "مدرسة لا أخلاقية عممت الفساد على طبقات المجتمع"⁽²⁾، لذلك سنجده يركز على الحضارة الرومانية في داخلها لبحث عن أسباب ازدهارها أو سقوطها. ثانيا اعتقاده الجازم ان الحضارة الرومانية التي اعتنقت المسيحية هي الحضارة الأبدية، والتي سوف يحكمها المخلص بعد عودته. لذلك سنعمد في البداية الى طرح موجز لتحديد المكاني والتاريخية للإمبراطورية الرومانية. ثم سنبين ماهي أسباب قوة الحضارة الرومانية القديمة؟ وماهي الأسباب التي أدت الى سقوطها فيما بعد؟ وفي النهاية سنختم بمنظور القديس أوغسطين الحرب والصراع وسبيل الوصول الى السلام الابدي.

(1) - القديس أوغسطين: مدينة الله، ج3، مصدر سابق، ص:7.

(2) - المصدر نفسه، ج1، ص: 61.

المبحث الاول: أسباب ازدهار الحضارة

درس القديس أوغسطين تاريخ الحضارة الروماني من كافة جوانبه بالتفصيل وخاصة الجانب الأخلاقي. بغية تبرئة الدين المسيحي من اتهامات الوثنيين، ليتوصل في الأخير الى أسباب قيام الحضارة الرومانية وازدهارها، فما هي هذه الأسباب التي أدت الى قيامها من خلال الدراسة الأوغسطينية؟

أولاً: لمحة عن الحضارة الرومانية

نشأت روما القديمة فوق سبعة تلال مغطاة بالغابات على ضفة نهر التيبر. وقد وفر لها هذا النهر طريقاً ملائماً إلى البحر الذي يقع على بعد نحو 24 كم إلى الغرب منها، وهكذا روما كانت بعيدة عن البحر بما يكفي لتجنيبها غارات القراصنة. كانت تلال روما شديدة الانحدار، مما ساعدها على الدفاع عن نفسها بسهولة ضد الأعداء. ثم وقعت الأراضي المجاورة لروما، تدريجياً تحت حكم الرومان، وكانت الأراضي ممتدة في البحر المتوسط بشكل بارز. وهكذا احتلت روما مركزاً وسطاً بين البلاد المحيطة بهذا البحر. وفي الشمال ساعدت جبال الألب على حماية روما من الغزاة القادمين من وسط أوروبا. ولكن الممرات الجبلية كانت تفسح المجال لعبور قلة من المستوطنين، الذين جذبهم مناخ روما المعتدل وترتيبها الخصب. وكان نمو السكان المطرد، في وقت لاحق، قد وفر لروما الجنود الذين تحتاجهم لتوسعها. انتشر الحكم الروماني تدريجياً في البلاد المحيطة بالبحر المتوسط. وأطلق الرومان على هذا البحر اسم بحرنا أو البحر الداخلي، وامتدت الإمبراطورية الرومانية، في ذروة اتساعها في القرن الثاني الميلادي "الى أكثر من ألفي ميل عرضاً، من صور انطونيوس والحدود الشمالية لداشيا الى جبال أطلس ومدار السرطان أو الصحراء الكبرى، أما طولها فقد امتد الى أكثر من ثلاثة آلاف ميل، من المحيط الأطلسي الى الفرات، وهكذا فقد امتدت في أجمل بقاع الدنيا، بين خطي عرض 24° - 56° ؛ وبلغت مساحتها حوالي مليون وستمئة ألف ميل مربع"⁽¹⁾. فكان للإمبراطورية الرومانية موارد طبيعية متعددة، من حقول القمح الخصبة في صقلية وشمالي

(1) - إبراهيم خميس إبراهيم و(آخرون): معالم التاريخ الأوربي الوسيط، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، 2004)، ص: 15.

إفريقيا، إلى المناجم المعدنية الغنية في أوروبا، ومحاجر الرخام في اليونان. كما وجدت أيضا غابات كثيفة في آسيا الصغرى، وبساتين الكروم والزيتون في بلد الغال وهي حاليًا فرنسا وبلجيكا وجزء من ألمانيا.

يرى الكثير من الفكريين أن عدد سكان الإمبراطورية الرومانية، في أوجها، كان يتراوح بين 50 و70 مليون نسمة، منهم نحو مليون تقريبا في مدينة روما، ومن خمسة إلى ستة ملايين في بقية أنحاء الامبراطورية. تختلف الشعوب التي رزحت تحت هيمنة الإمبراطورية الرومانية اختلافاً كبيراً في التقاليد واللغات. فثقافات سكان بلاد الرافدين وفلسطين ومصر واليونان كانت أعرق وأقدم من حضارة روما. ولكن شعوباً عديدة، في كل من بريطانيا وألمانيا والغال، تعارفت عن طريق الرومان، على حضارة أكثر تقدماً. وقد تكلم موظفو الحكومة وأفراد الطبقة العليا، في كل أرجاء الإمبراطورية، اللغتين اللاتينية واليونانية. ولكن معظم الشعوب المغلوبة استمرت في استخدام لغاتها المحلية؛ ففي كل من الغال وبريطانيا، مثلاً، كان الناس يتكلمون اللغة السلتيّة، وفي شمالي إفريقيا اللغة البربرية ويتكلمون في سوريا وفلسطين الآرامية، وفي مصر اللغة المصرية القديمة في لهجتها القبطية. "انقسم سكان روما القديمة إلى طبقات اجتماعية متعددة. وكانت قلة من الرومان تنتمي إلى الطبقة العليا. وشكّل أعضاء مجلس الشيوخ وعائلاتهم الفئة الأعظم نفوذاً من بين أفراد هذه الطبقة، أما معظم الناس فكانوا من الطبقات الدنيا، ومكانتهم الاجتماعية وضعيفة. وكان الرومان يميّزون، داخل الفئة الأخيرة، بين المواطنين والمستعبدين. فقد ضمت فئة المواطنين المزارعين الصغار وعمال المدن والجنود، في حين كان معظم المستعبدين أناساً تم أسرهم في الحروب. وقد أصبح بإمكان المستعبدين، في وقت لاحق، أن يشتروا أو يمنحوا حريتهم ويصبحوا أحراراً، ثم مواطنين"⁽¹⁾.

كان الرومان الأوائل يعتقدون بأن لآلهتهم سلطة على الزراعة وعلى نواحي الحياة اليومية كلها. فقد كانوا يزعمون أن سيريز، مثلاً، آلهة للحصاد، وفستا حارسة نار الموقد، وجانوس حارس الأبواب. وكانت الآلهة، المسماة لاريس وبناطس، تحرس الأسرة والبيت. حتى أن جوبتير، الذي أصبح مؤخرًا أكبر آلهتهم، عبد في بادئ الأمر إله

(1) السيد عبد الفتاح عاشور: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، (دار النهضة، بيروت، دط، 1976)، ص: 11.

للسماء ومتحكما في الطقس. وبعد تزايد احتكاك الرومان بالأفكار الإغريقية خلال القرن الرابع قبل الميلاد. ومن ثم أخذوا يعبدون الآلهة الإغريقية، واعطوها أسماء رومانية وبنوا معابد ومزارات لتكريمها وقد سيطرت الحكومة على الدين. و"كان الكهنة موظفين حكوميين، إما بالانتخاب أو بالتعيين، يقومون بالطقوس العامة التي كانوا يرون أنهم يكسبون بها عطف آلهتهم على الدولة"⁽¹⁾. فقد عدد كبير من الرومان في القرن الأول الميلادي اهتمامهم بديانتهم وجذبهم الأديان السماوية حيث كان للنصرانية القسم الأكبر منها فكسبت أتباعا كثيرين في ذلك الوقت. والتي سنتهم فيما بعد بالتسبب في سقوط روما، بحجة أنها افسدت على الرومان ديانتهم، فاغضبوا الآلهة لتسلط عليهم وتغني حضارتهم.

أخذت الإمبراطورية الرومانية الغربية تضعف بشكل مطرد؛ فقد هاجم الوندال، والقوط الغربيون، وشعوب جرمانية أخرى، كالألمانية من إسبانيا والغال وشمالي إفريقيا. ونهب القوط الغربيون مدينة روما سنة 410م. ويؤرخ سقوط الإمبراطورية الرومانية غالبا بسنة 476م. حيث عزل، في تلك السنة الزعيم الجرمانى أدواسر آخر حاكم للإمبراطورية الرومانية الغربية، وهو رومولوس أوغستولوس عن العرش. وكان الزعماء الجرمان قد بدأوا، قبل ذلك بتقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى ممالك عديدة. وظلت الإمبراطورية الرومانية الشرقية باقية وممثلة في إمبراطورية البيزنطية، حتى استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية في سنة 1453م.

لم تكن الحضارة الرومانية حضارة مؤمنة الا انها اتسمت بالعالمية. فما هي الأسباب التي جعلتها تتميز بهذه القوة في نظر القديس أوغسطين؟

(1) السيد عبد الفتاح عاشور، مرجع سابق، ص: 17.

ثانيا: أسباب قوة الحضارة الرومانية

نذر القديس أوغسطين نفسه للدفاع عن الدين المسيحي، وذلك من اللحظة التي عرف فيها الله في ذاته، حين بلغ الثانية والثلاثين من العمر، فراح يتصدى للهجمات الشرسة التي شنها أعداء الله على الإيمان المسيحي، حين زعموا ان المسيحية قد افسدت على الرومانيين دينهم، مما أدى الى غضب الآلهة الرومانية وبالتالي اذنت هذه الآلهة بخراب الحضارة الرومانية، هذا الادعاء استفز القديس أوغسطين مما دعاه الى دراسة تاريخ روما بالتفصيل الدقيق، وذلك قصد تبيان الأسباب الحقيقية وراء سقوطها ورفع التهمة عن الدين المسيحي، ليبين في الأخير ان الحضارة الرومانية قد حملت في طياتها بذور فنائها، شأنها شأن الانسان الارضي الذي بناها، لأنه بدوره يحمل موته في حياته، وفي خضم ذلك نجد أنه قد أشار الى الاسباب الحقيقية وراء قوة هذه الحضارة العالمية، ففيما تمثلت اهم الأسباب التي ساهمت في قيام الحضارة الرومانية من خلال الدراسة الأوغسطينية؟

كانت قوة الإمبراطورية الرومانية في كل كتب التاريخ والملاحم، تعزى الى عوامل عديدة أهمها القوة العسكرية وكثرة عدد الجند بالإضافة الى قوة الاسطول البحري، ضف الى ذلك اتساع الرقة الجغرافية التي امنت المواد الخام للتسلح، والأراضي الشاسعة للفلاحة، كما ان التضاريس الصعبة ومحاذات البحر ساهمت في تحصين حدود الإمبراطورية من الهجمات الخارجية. هذا ما ذكر وتكرر في كتب التاريخ، لكن القديس أوغسطين قد كان له رأي مخالف تماما لمن كان قبله من المؤرخين إذا اعتبرناه مؤرخا فهو يقول: " لا تظنوا ان اجدادنا قد جعلوا بقوة السلاح من الجمهورية الصغيرة جمهورية كبيرة، لو ان الامر صحيح لكانت اليوم أكثر ازدهارا. اليس لنا حلفاء ومواطنون أكثر مما كان لهم؟ اليس لنا سلاح وحيول أكثر مما كان لهم؟ لكن هناك أسبابا أخرى جعلتهم أقوىاء لم يعد لنا مثلها اليوم"⁽¹⁾، هذه كانت أول النتائج التي توصل اليها القديس أوغسطين من خلال بحثه في الحضارة الرومانية، والتي مفادها أن هنالك أسباب غير القوة العسكرية والمادية، ساهمت في قيام الحضارة الرومانية. فماهي هذه الأسباب

(1) - القديس أوغسطين، مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص ص: 243-244.

اذن؟ يجب القديس أوغسطين بالقول: "في الداخل نشاط وفي الخارج حكم عادل"⁽¹⁾. وهكذا يصرح القديس أوغسطين في هذا القول ان العدالة هي الأساس الأهم الذي قامت عليه الحضارة الرومانية، والعدالة في نظره كما أسلفنا الذكر، هي هذه الفضيلة التي "تعطي كل ذي حق حقه"⁽²⁾. كما لا يعتبر القديس أوغسطين الدول التي لا تقوم على عدالة صحيحة دولا "فلا شعب يقوم إذا لم تكن مشاركة تحت حق معترف له (على انه لا حق حيث لا عدالة) ينتج عن ذلك حتما انه حيث لا عدالة، لا جمهورية"⁽³⁾. بل وقد ذهب القديس أوغسطين الى ابعد من ذلك، حين اعتبر ان الدول التي لا تقوم على عدالة هي عبارة عن "جماعات كبيرة من اللصوص. وماهي جماعة اللصوص ان لم تكن مملكة صغيرة؟ انها مجموعة من البشر تأتمر بأمر انسان واحد وتعترف بعهد اجتماعي ينظم تقاسم المغامم فيما بينها"⁽⁴⁾. ويرى القديس أوغسطين ان العدالة الرومانية هي عدالة سامية قائمة على مبدأ الفضيلة، الا انها ليست هي العدالة الحقة؛ لأننا نجد قد ارجأ العدالة الحقة الى مصدر الاهي شأنها شأن باقي الفضائل الأخلاقية الحقة، ولأن "الفضيلة هي العمل بمقتضى أوامر الله، والفضائل اذا انقطعت صلتها بالله كانت رذائل فمن الخطأ جعل الفضائل تطلب لذاتها، ولا من اجل نتائجها النافعة، بل تطلب لأنها تتماشى مع إرادة الله"⁽⁵⁾؛ بعبارة أخرى ان العدالة الحقة هي المرتبطة بحكم الله؛ لان "العدالة الإنسانية أساسها العودة الى الله، والالتزام بكل جوانب العقيدة الدينية، اذ ان جوهر العدالة-فيما يقول أوغسطين- يكمن في العلاقة بين المرء والرب وتنبثق عنها بالتأكيد العلاقة السليمة بين الانسان والانسان"⁽⁶⁾؛ فالعدالة القائمة بين الشعب هي عدالة تعوقها رغبات النفس وشهواتها، فلما ترتبط هذه النفس بالله يمكّنها الايمان من السيطرة على تلك الشهوات والرغبات وازالت تلك المعوقات وبذلك

(1)- القديس أوغسطين، مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 244.

(2)- المصدر نفسه، ج3، ص: 116.

(3)- المصدر نفسه، ج3، ص: 151.

(4)- المصدر نفسه، ج1، ص: 172.

(5)- محمد مهران رشوان: تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، (دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 1998)، ص: 122.

(6)- مصطفى النشار: تطور الفكر السياسي القديم من صولون حتى ابن خلدون، (دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1999)،

ص: 186.

تتحقق العدالة في ضل صلة محكمة بالخالق. وهذا لا يمكن ان يتحقق الا في كنف الدين المسيحي، لان العقيدة الصحيحة في نظر القديس أوغسطين هي الدين المسيحي فقط؛ لأنه "ما من دولة بعد ظهور المسيحية تستطيع ان ترتقي الى مرتبة الدولة الحقّة ما لم تكن هي نفسها مسيحية"⁽¹⁾.

لكن الحضارة الرومانية كانت حضارة وثنية، فلم تكن تعترف قبلا بالدين المسيحي إلا أنّها حكمت العالم.

فكيف أجاب القديس أوغسطين عن هذا التناقض الذي نلاحظه من خلال طرحه هذا؟

يؤكد القديس أوغسطين ان الازدهار لا يختص بالدول المؤمنة فحسب، بل يتعدى ذلك الى الدول التي لا تقوم على أساس عقيدة صحيحة؛ فمن العدل الإلهي إذا اخذت الدول بأسباب معينة، أمكنها الله من حق الازدهار والتطور، ومتى تخلت عن تلك الأسباب حق عليها الدمار والخراب. فالحضارة الرومانية لم تكن حضارة مؤمنة لكنها كانت حضارة أخلاقية، أخذت بالأسباب، يقول: "لأن العدل والشرف كانا يحكما بواسطة الضمير كما يحكم القانون"⁽²⁾، أي ان الرومان وان لم يحكموا الدين، فقد حكموا الضمير الإنساني بدل ذلك، ومن المعلوم ان الضمائر مصدرها النفس الإنسانية، وبحكم ان النفس تشتهي ضد الجسد كما سبق الذكر، فإن الضمير الروماني كان دائما حيا يدفع الشهوات والرغبات الجسدية ويتطلع دوما الى الفضائل، لذلك استطاع الرومان ان يقيموا عدالة وينشؤوا حقا. وبناءً على هذا يرى القديس أوغسطين ان عدل العناية الإلهية قد كافأ الرومان على اخلاقهم، فأمكنهم من بناء حضارتهم وأخضع لهم الأمم، يقول: "ألم يكرمهم عددا كبيرا من الأمم؟ ألم يخضعوا لهم عدد كبير من الشعوب؟ ألم يكرس المجد أسماءهم في كتب التاريخ؟ وهل لهم أن يشكوا عدل الاله الحق؟ ألم ينالوا جزاءهم؟"⁽³⁾؛ أي هذا جزاؤكم على اخلاقكم وفضائلكم يا شعب روما. لكن هل العدالة وحدها ما جعل الإمبراطورية الرومانية تسود العالم؟

(1) جورج سباين: تطور الفكر السياسي، تر: حسن جلال العروسي، مراجعة وتقديم: محمد فتح الله الخطيب، (دار المعارف-مؤسسة فرانكلين،

مصر-نيويورك، ط2، 1969)، ص: 280.

(2) القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 83.

(3) المصدر نفسه، ص: 250.

يضيف القديس أوغسطين ان للرومان كثير من الاخلاق والفضائل التي كافأهم الرب عليها، إضافة الى فضيلة العدل، وهي "في البداية حب الحرية، ثم التسلط، وأخيرا شهوة العظمة التي تلد البطولة"⁽¹⁾، فلم يكن الفرد الروماني ذكرا أو أنثى يبالي بشهواته ورغباته أو عائلته إذا تعلق الامر بمجد روما وحريتها، فكلما تعرضت روما للغزو والحرب "أسرعوا الى الموت في سبيل الحرية..."⁽²⁾، لان الحرية كانت تمثل فخر الشعب الروماني فلا يهمهم سوى "ان يموتوا كراما، او يعيشوا أحرارا..."⁽³⁾، ضف الى ذلك ان هذه الحرية لم تكن تعني شيئا للرومان "اذا لم تكن مقرونة بحب التسلط"⁽⁴⁾ لان الرومان "بعد الحرية كانوا يتوقون من كل قلوبهم الى التسلط الذي يجيدون فيه مجدهم"⁽⁵⁾، ويرى القديس أوغسطين أن مفهوم المجد كان مختلفا بين الرومانيين وغير الرومانيين، فلما كان تعريف المجد عند غير الرومانيين هو: "الرأي الجيد للإنسان بالإنسان"⁽⁶⁾ فإن النفس الرومانية لم يكن يرضيها حكم الناس فحسب بل "وحده حكم الضمير الداخلي يرضيها"⁽⁷⁾، ولسان حالهم يقول كما جاء في الكتاب المقدس: "ان فخرنا هو هذا: شهادة ضميرنا"⁽⁸⁾ فالروماني "بقدر ما كان يعزف عن المجد كان المجد يلاحقه"⁽⁹⁾. وبذلك فالروماني "يكون له الفخر من جهة نفسه فقط، لا من جهة غيره"⁽¹⁰⁾. هذه الحرية التي كانت مقرونة بحب التسلط والمجد والعظمة، هذا الحب جعل من الرومان يتطلعون الى دولتهم العالمية، ذلك المجد الذي جعل كل نفس رومانية تفني ذاتها في طلبه متجاوزة بذلك كل رغبة زائلة، حتى تنال عظمتها وتخلد في الملاحم عبر التاريخ، يقول أوغسطين عن النفوس الرومانية: "لقد

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 241

(2)- المصدر نفسه، ص: 241.

(3)- المصدر نفسه، ص: 241.

(4)- المصدر نفسه، ص: 241

(5)- المصدر نفسه، ص: 242.

(6)- المصدر نفسه، ص: 243.

(7)- المصدر نفسه، ص: 243.

(8)- الكتاب المقدس، [2كو1: 12].

(9)- المصدر السابق، ص، 243.

(10)- الكتاب المقدس، [غل6: 4].

كانت النفوس النبيلة كالجبانة تسعى بنهم الى المجد والعظمة والسلطان"⁽¹⁾. وهكذا سار الروماني بكبرياء وشموخ الى بناء إمبراطورتيه العالمية ليخلد ذكره في التاريخ البطولات العالمي ويحقق رغبته في تحقيق الدولة العالمية. نعم: "روما التي أصبحت سيدة حرة راحت تنمو بسرعة لا توصف لشدة ما سيطرت شهوة المجد على القلوب! فالعطش الى المديح والتوق الى الشرف كانا في أصل المآثر الرائعة والبطولية بحسب رأي الناس"⁽²⁾. فالرومانيين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية كانوا يفخرون بمآثرهم في الحروب والملاحم، في المسارح او في الساحات، وقد يرتفع شأن الروماني على قدر إنجازاته وبطولاته، فكلما زاد مدحه من الناس زاد فخره بنفسه وكلما زاد فخره بنفسه زاد حبه لمجده.

وهكذا بين القديس أوغسطين ان هناك أسبابا لتقدم الدول وازدهارها تنطوي كلها ضمن العناية الإلهية يقول:
"ليست عظمة المملكة من الصدف ولا عامل الحتمية؛ أي من دون سبب، وخارجا عن نظام العقل؛ لان الحتمي هو ما يحدث بمعزل عن إرادة الله وإرادة البشر نتيجة نظام ضروري، وفي الواقع فان العناية الإلهية تنشئ ممالك الأرض"⁽³⁾؛ أي رفض القديس أوغسطين أن يرجع تقدم الدول واستمراريتها أو سقوطها إلى قدر مجهول، وإنما يرجعه دائما الى إرادة الله، ولا يقتصر التقدم و الازدهار على الدولة المؤمنة بل يتعدى ذلك إلى الدول التي لا تقوم على أساس عقيدة صحيحة، او ليس لها عقيدة أصلا، لأن عدل العناية الإلهية يمكنها من أن تتقدم ولكن تقدمها لا يكون ابديا بل يكون زمنيا إذا أخذت بأسباب معينة، فهو يذهب إلى أن الشعوب التي ليس لديها الإيمان والتقوى الذي يدعوهم إلى السيطرة على الشهوات، فإن حب المجد العالمي يؤهلهم لان يكونوا في مستوى البشر اللائقين يقول: "على ان الذين لم ينالوا نعمة الروح القدس ليسيطروا بالإيمان والتقوى ومحبة الجمال العقلي على الشهوات المخجلة فإن حب المجد العالمي يجعلهم قديسين، بل يصيرهم اناس في مستوى بشري لائق"⁽⁴⁾. فالمدينة

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج 1، مصدر سابق، ص: 242.

(2)- المصدر نفسه، ص: 240.

(3)- المصدر نفسه، ص: 219.

(4)- المصدر نفسه، ص: 246.

الأرضية عند أوغسطين ليست مجردة من الفضائل، الا ان تلك الفضائل هي فضائل زمنية زائلة وليست ابدية باقية، ولا تماثل فضائل اهل مدينة الله؛ فالفضائل الزمنية يكافئ الله عنها بعدله في الدنيا كما حدث مع الحضارة الرومانية، التي بلغت مشارق الأرض ومغاربها.

لكن المتتبع لتاريخ الحضارة الرومانية يرى انه بالرغم من الازدهار والرخاء المادي، والارتقاء الثقافي والأخلاقي الا انها ما لبثت حتى راحت تغرق في الحروب والويلات والخرابات، الى ان انتهى بها المطاف في الأخير عبارة عن اطلال لم يبقى منها الا الاسم والتاريخ. فما هي الأسباب الحقيقية وراء سقوط هذه الحضارة العظيمة في نظر القديس أوغسطين؟

المبحث الثاني: أسباب سقوط الحضارة

بين القديس أوغسطين أسباب قيام الحضارة الرومانية وازدهارها، وفي خضم ذلك اطلع على الأسباب التي أدت الى سقوطها واندحارها رافعا بذلك التهمة عن الدين المسيحي. فما هي هذه الأسباب التي أدت الى سقوط الحضارة الرومانية واندحارها؟

يبدأ القديس أوغسطين دراسته لأسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية بتقسيم هذه الأسباب الى نوعين، أسباب تعنى بالفساد الجسدي وأخرى تعنى بالفساد الروحي.

أولا: الفساد الجسدي

فأما الأول فتمثله امراض الجسد بمختلف أنواعها، الجوع والمرض والنهب والاسر والموت، وسائر الويلات الزمنية التي قد تصيب البشر، ويشترك في هذه الامراض كل من اهل مدينة الله وأهل المدينة الأرضية، وتنتج امراض الجسد غالبا من الحروب والصراعات الداخلية او أي فوض من نوع آخر او بدريعة حفظ السلام فإن " السلم والحرب يتسابقان على الشراسة... الحرب تضرب رجالا مسلحين اما السلم فينزح منهم سلاحهم ليقتلهم، الحرب جرح بجرح، اما السلم فلم يسمح للذين نجحوا من الحرب بان يدفعوا عنهم حد الخنجر"⁽¹⁾، بل يذهب القديس الى ان الشنائع والفظائع التي تحدث في زمن السلم ابشع منه من تلك التي تحدث في الحرب فيقول: "بيد ان سيلا دخل منتصرا وأخذ يقتل سبعة الاف رجل منزوعي السلاح في مزرعة عمومية. هنا لا مجال للحرب بل السلم"⁽²⁾؛ أي ان هذه الفعلة لا يلام عليها الحرب بل السلم، ثم يضيف واصفا شناعة فعلة هذا الحاكم وجنوده بمن استسلموا لهم من الجنود: "هلك الكثيرون بينهم واحد قطعت يدها بلا سكين، ويدها فقط! رجال سلخوا إنسانا آخر بوحشية تفوق وحشية حيوانات رموا اليها بجثة، وآخر قلعوا عينيه وقطعوا أعضائه واحدا تلو الآخر ليعيش تلك العذابات او

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 159.

(2)- المصدر نفسه، ص: 159.

بالأحرى ليموت بها"⁽¹⁾، وهذا الفساد الجسدي عند القديس أوغسطين سواء في الحرب حين تبيحه الضرورة أو في السلم حين ينتج عن حقد دفين إنما ينم على خراب أخلاقي بدأ ينخر الأرواح والنفوس الرومانية قبيل خرابها المادي.

ثانيا: الفساد الروحي(النفسي)

أما الجانب الذي ركز عليه القديس أوغسطين، فهو جانب الأسباب التي تعنى بأمراض النفس، أو الفساد الروحي، والتي يختص بها اهل المدينة الأرضية لأنهم اهل الويلات والآثام، " أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة وانقسامها، وذلك ان الملك عندما يستفحل ويبلغ من أحوال الترف والنعيم الى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد وينفرد به"⁽²⁾؛ ومعنى القول انه لما تزدهر الدولة وتبلغ عنان مجدها، ويستقر لها الحال، يستبد الحاكم بالملك ويبدأ بنسب المجد والانتصارات لنفسه. فتبدأ بوادر السقوط بالظهور، ولأن "حب المال اصل كل شر"⁽³⁾ فإن الازدهار يؤدي الى الترف، والترف يؤدي الى حب جمع المال والجشع وحب المتعة، الذي يحث النفوس الخبيثة على الدعارة، فيقول أوغسطين بهذا الشأن: "شعب افسده الجشع والدعارة اللذين انجبهما ذاك الازدهار... الازدهار افسدكم"⁽⁴⁾، ثم يردف قائلاً أيضاً معاتباً أولئك الوثنيين الذين يتهمون المسيح بالخراب وموبخاً لهم ومبيناً شدة فسادهم: " تتهمون المسيح وتندمرون منه، وفي الواقع أليس لأنكم تريدون التمتع دون ارعاج برذائلكم أحرارا من كل عذاب جهنمي لا يطاق، والغوص ما شئتم في فسادكم؟ تشتهون السلام والبجوبحة والخيرات، ألكي تتمتعون بها بطريقة شريفة واعتدال وخوف الله؟ كلا ثم كلا، تنوع من الملذات لا ينضب له معين، وهدر جنوني وأخيرا نمو خصب في الخراب الأخلاقي"⁽⁵⁾ وهذا في نظر القديس أوغسطين " اشد هولا من سيف العدو"⁽⁶⁾ على الدولة واركائها.

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق ص: 159.

(2)- ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، (دار يعرب، دمشق، ط1، 2004، ج1)، ص: 484.

(3)- المصدر السابق، ص: 54.

(4)- المصدر نفسه، ص: 56.

(5)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق ص ص: 53-54.

(6)- المصدر نفسه، ص: 54.

يركز القديس أوغسطين على ان الازدهار والسلام والرخاء المادي وشهوة جمع المال هي التي تجعل من الشعوب تنهار وتسقط فروما" انتقلت من الازدهار الى حروب داخلية على دروب الفوضى والاضطرابات، مذ ذلك الحين لم تعد التقاليد القديمة تسير ... طغى الترف والبخل على قلوب الشبيبة حتى استحال عليهم الحفاظ على تراثهم في نفوسهم"⁽¹⁾ تناقص حب المجد والعظمة في نفوس شباب الرومان شيئا فشيئا حتى انتهى، فحل محله حب جمع المال والتنافس في إتيان كل أنواع الرذائل وتجاوز كل أنواع الفضائل، فاستباحوا الحرمات واذاعوا بوقاحة ثقافة الخليلات امام الناس " واصبحوا يتنافسون على احضار اكبر عدد منهن الى احتفالاتهم ومآذهم... وعلى هذا النحو فإن شرورا نفسية عدة وأوبئة أخلاقية وفوضى في الحياة وآفات رهيبه"⁽²⁾ ستصيب قلوب الشباب، وعلى هذا النحو سينشغل ملوكهم بتزيين القصور والاسرة، والتمتع بالاحتفالات والمسارح والعروض المدنية الخليعة و" كل من لا يرضى بهذا النمط من الحياة يعتبر عدوا للشعب حتى اذا قام مواطن يعكر صفو هذا النمط تنبذه الجماعة عنها، دون ان تستمع اليه، فتطرده وتجعله خارجا عنها"⁽³⁾، لقد فسد شباب روما وجميع أهلها وضاعوا في غيابات الدعارة والفسوق لكن من هو المسؤول عن هذا الفساد؟

يجيب القديس أوغسطين بان أهتهم هي المسؤولة عن فسادهم، وبذلك ينقلنا الى نوع آخر من الفساد الروحي وهو الفساد الديني، وهو الفساد الذي منحه القديس أوغسطين الكم الأكبر من الدراسة "فالفساد الديني أوصل الى الفساد الخلقى والفساد السياسي واستسلم الشعب الى نزواته، واشباع ملذاته، ولم يعد يطالب الدولة بإقامة العدل وصيانة حقوق الانسان" فالشعب الروماني كان يعبد الالهة والتي لا تعينه على حياته الأخلاقية، بل ان الذين يشرعون باسم الآلهة لم يكونوا صالحين في نظر القديس أوغسطين، فقد كانوا شياطين من الناس لا يسعون

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 86.

(2)- المصدر نفسه، ص: 82.

(3)- المصدر نفسه، ص ص: 89-90.

الا الى الرذيلة والفساد، فأنظر مثلا حين يأمرن شعراءهم عندما "يقومون بالتمثيلات الإعلان عن سفالتهم"⁽¹⁾، ثم انظر يوم الوضوء ذاك حالما يقومون بالطقس " الاحتفالي للعدراء يرسينتيا، والدة جميع الآلهة علنا وعلى سريرها، كان المغنون السفهاء ينشدون أغاني يمجّل الانسان من سماعها، موجهة الى والدة الالهة. او الى والدة شيخ من مجلس الشيوخ او حتى أي انسان آخر شريف... بل يمجّل من ان تقال لامه واحد من المهرجين، لان الانسان يحفظ في قلبه تجاه والديه عاطفة من الحياء لا تقوى على طمسها الاعمال الخلاعية الأخيرة"⁽²⁾، هكذا كان المشرعون الرومان يدسون سمومهم الشيطانية في نفوس الشعب باسم آلهة اصطنعوها، وباسم مقدسات ابتدعوها فإن "كانت تلك هي المقدسات فكيف يكون انتهاكها؟ ان كان ذاك هو الوضوء فكيف يكون الوسخ؟ من ذا الذي لا يدري اية أرواح ترتضي تلك السفاهات، الا إذا كان يجهل بوجود الأرواح القذرة التي تغوي الناس باسم الآلهة، ويحيا حياة يسعى فيها من خلال احتقاره الاله الحق، الى كسب رضى الآلهة واجتناب غضبهم"⁽³⁾، لقد افسدت الآلهة كل روماني شريف، فكيف يكون حال أولئك الذين كان اشرارا أصلا؟

لقد تخلى الرومانيون عن حبهم للحرية وعن سعيهم لمجد دولتهم العالمية، فأصبحوا كلما دعى داعي الحرب بدل ان يسارعوا الى الموت في سبيل الحرية يسارعون الى " الاحتفالات بالألعاب... من دون اغفال أي شيء لإرضاء وتهديئة الآلهة... ذاك هو الطقس الدنس والعريضة والوقاحة والفجور"⁽⁴⁾، وهكذا سار حماة روما لا يهتمون سوى "باسترضاء آلهتهم بواسطة الدعارة"⁽⁵⁾، متفننين بكل أنواع الخلاعة والفسوق املا في ان ترضى عنهم آلهتهم فتحميهم من العدوان ولكن هيهات.

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 80.

(2)- المصدر نفسه، ص: 67.

(3)- المصدر نفسه، ص: 67.

(4)- المصدر نفسه، ص ص: 105-106.

(5)- المصدر نفسه، ص: 105.

غياب العدالة في الإمبراطورية الرومانية أو حيادتها عن مغزاها الأصلي، أيضا يعد من أهم الأسباب النفسية التي أشار إليها القديس أوغسطين لأهتبار الحضارة. فحين غابت العدالة فقد الشعب الثقة في السلطة مما أدى في نهاية الامر الى الثورات والانقلابات الداخلية، وقد أشار القديس أوغسطين الى ان "مملكة تخلو من العدالة ولا تقيم لها وزنا تصبح مجموعة من زمر اللصوص"⁽¹⁾؛ فالعدالة الرومانية أصبحت تنحصر في زيادة القوي قوة والضعيف ضعفا، ولم تعد تعمل بالإنصاف. فهي آلة في يد أصحاب النفوذ يفعلون بها ما يشاؤون " منذ ان انتقلت روما من حكم الملوك الى حكم القناصلة اثارت مظالم الأقوياء انفصال مجلس الشيوخ عن الشعب كما حدثت نزاعات داخلية أخرى"⁽²⁾، فلم يعد الضعيف له حق المطالبة بالعدل او حتى بالمساواة. كما يشير القديس أوغسطين إضافة الى غياب العدالة، الى خطر الافراط في الحرية العامة؛ لان انفلات الحرية في نظره سيحيلها " وباء وشغبا وانحطاطا وفسادا"⁽³⁾؛ وانفلات الحرية معناه ان لا تقتزن بحب التسلط الذي يولد البطولة والمجد. فقد خمدت روح الرومانيين بعد سقوط قرطاجة السريع. وأخذهم الغرور ففقدوا حذرهم وظن كل مواطن انه ملك لا يلزمه إلا التمتع بالخيرات في الرذائل والخلاعات، فإن كان كل روماني يعد نفسه ملكا فمن ذا الذي سيحمل السلاح للدفاع ان اسوار روما؟ لقد بقيت حصون روما مهددة بالسقوط. فمن الداخل فساد خلقي وآلهة تشيع الرذيلة، ومن الخارج عدو متربص ينتظر لحظة ضعف لينقض على الاسوار. " أجل بغاء وشراسة هون وجرائم منسوبة الى الآلهة ينشرونها أو يخترعها الناس أعياد يقيمونها احتفاء بتلك القبائح تعرض أمام الناس ليقتدوا بها، شهوة دميمة تقنعهم بأنهم ليسوا سوى أرواح شريرة... اجل تلك هي الحال"⁽⁴⁾ هكذا يتحصر أوغسطين على روما التي لم تعد بتلك الشهامة المعهودة، نعم " ها هي الجمهورية الرومانية تتحول شيئا فشيئا وتتهاوى من علياء مجدها في الرذيلة والعار"⁽⁵⁾، روما

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 165.

(2)- المصدر نفسه، ص: 84.

(3)- المصدر نفسه، ص: 152.

(4)- المصدر نفسه، ص: 103.

(5)- المصدر نفسه، ص: 87.

التي كانت في يوم من الأيام قد سارت الى بناء مجدها وعظمتها، ها هي ذي تهوي الى الحضيض وتغرق في بحر الرذيلة والفساد، لهدم أبناء اليوم بالبذاءة والفساد الخلقي ما بناه الامس بالأخلاق والفضيلة والضمير.

كيف يكون الدين المسيحي هو المتسبب في كل هذه الآفات والتاريخ يشهد على العكس؟ بل ملوكهم يشهدون فيها هو ذا احد ملوكهم يحاول ان يصلح الاخلاق الرومانية ويعيدها الى سابق عهدها من خلال قيامه "بضبط غريزة الحرية الزائدة والدعارة بواسطة الخوف، ويكبح جماح البغاء بواسطة البخل، كما أراد ان تتجذر الفضيلة وتزدهر في الجمهورية وتتنامى فيها الحرية الضرورية للفضيلة، عن طريق كبت الرذيلة"⁽¹⁾، وها هي أيضا اعمال مصلحيهم تشهد حين ينبري أحد المصلحين أطلق عليه أوغسطين لقب "الحبر الأعظم"⁽²⁾، الى مجاهدة السلطات حينما قررت روما بناء مسرحها الكبير ليقنعهم بفصاحته بالعدول عن بنائه "لأنه مشروع فاسد ومفسد تدخل بواسطته الى البيت من الخارج تلك الحرية الزائفة، والزائدة مع الرذيلة الاغريقية لتقضي على الآداب التقليدية الرومانية وتفسد وتخت رجولة القوة الرومانية"⁽³⁾. نعم لقد شهدوا بأنفسهم على أنفسهم بأن أعمالهم وقلوبهم قد فسدت وأنها هي التي تسببت في فساد حضارتهم وليس الدين المسيحي.

لم يقف القديس أوغسطين عند تشخيص الامراض التي ساهمت في سقوط الحضارة الرومانية فقط، بل تجاوزها الى وصف العلاج الشافي لكافة تلك الامراض والأوبئة، وتمثلت وصفته هذه في " دعوة النفس الرومانية الى عبادة الاله الحق"⁽⁴⁾ الذي أرسل إليهم يسوع المسيح ليخلصهم مما هم فيه، وما سقوط الإمبراطورية الوثنية القديمة في نظر القديس أوغسطين الا رسالة من الله الى الشعوب الرومانية، وبشرى لهم بميلاد حضارة جديدة تكون مسيحية عالمية تمهد للحضارة الأبدية، التي سيحكم عليها المسيح بنفسه في آخر الزمان. فينادي القديس أوغسطين كل النفوس

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج1، مصدر سابق، ص: 54.

(2)- المصدر نفسه، ص: 54

(3)- المصدر نفسه، ص: 54.

(4)- المصدر نفسه، ص: 107.

الرومانية الى عبادة الله الواحد: "يا ايها النفس الرومانية ارتقي بأشواقك الى فوق... عليك ان تختاري ما توجهين اليه محبتك لا يكن فيك بل في الله، الاله الحق الذي يسبح من الان وصاعدا بلا خطأ"⁽¹⁾، لان "الله اصل خير وسعادة اتباعه البشرية"⁽²⁾، و"ان الخير طبع لمن اعتاده، والشر مباح لمن أراد"⁽³⁾ وعلى الرومانيين الانصياع الى ما يدعوا اليه الله من الفضائل وترك ما ارغمتهم عليه الآلهة من الرذائل والبغاء، عليهم ان يحبوا الله الحق مصدر كل الفضائل "فالفضيلة الكبرى ... هي حبة الله واضع النظام والمعين نفسه غاية لنا، وهي تتضمن سائر الفضائل، فهي الحكمة من حيث انها الوصول الى قمة الخير وهي الفطنة من حيث انها تجعلنا نحذر كل شيء ما خلا الله، وهي الشجاعة بفضل قوة اتحادنا بالله، وهي العدالة من حيث انها فوز النظام، فالسعادة والفضيلة متطابقتان وما الفضائل الأرضية الا وسائل لغاية ابعد منها"⁽⁴⁾ ولن يتأتى هذا الامر من الفضائل لاحد ما لم يعتنق الديانة المسيحية، فهي رسالة الرب الى العباد والسبيل الاوحد الى الخلاص والوصول الى الله.

في الاخير يمكن القول ان القديس أوغسطين قد وضع أسباب سقوط الحضارة في جملة من الأسباب ارجأها في معظمها الى نوعين أساسيين هما الأسباب المادية والتي تمثلت في مختلف الولايات الزمانية مثل الحروب والصراعات والنزاعات الداخلية والخارجية ويشترك في هذه الأسباب الأشرار والابرار على حد سواء. ثم الأسباب الروحية المعنوية والتي يختص بها الاشقياء من الناس فقط، صاغها القديس في عدة نواحي منها الجشع وحب جمع المال والافراط في الحرية وانعدام العدالة في الدولة، كما ركز في بحثه على ان السبب الرئيس المتسبب في كل ما سبق هو الفساد الديني الذي رده الى فساد الآلهة الرومانية. ليصل في النهاية الى نتيجة أساسية وهي ان سبب سقوط الحضارة الرومانية هو: ان الفساد الديني أدى الى الفساد الخلقي الذي أدى بدوره الى الفساد السياسي والاجتماعي مما دعى الناس الى

(1)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج 1، مصدر سابق ص ص: 107-108.

(2)- افلاطون: الجمهورية، تر: حنا حجاز، (دار القلم، لبنان، ط6، 2000)، ص: 69.

(3)- احمد الميناوي: جمهورية افلاطون المدينة الفاضلة كما تصورهما فيلسوف الفلاسفة، (دار الكتاب العربي، حلب، ط1، 2010)، ص: 70.

(4)- زيد عباس كريم: اسبينوزا الفيلسوف الأخلاقية، اشراف: احمد عبد الحليم عطية، (دار التنوير، بيروت، دط، 2008)، ص: 42.

التخلي عن المطالبة بالعدل، وتغير مفهوم الحرية عندهم، وفقدوا ضمائرهم فلم يعد الفرد منهم يحكم بالقانون العادل. ولما بين القديس أوغسطين السموم التي نخرت الحضارة كان لزاما عليه ان يشير الى الترياق، فما كان منه الا ان دعى النفوس الروماني الى الايمان بالله الواحد الحق، وترك الآلهة الآثمة، فالله هو مصدر كل خير، واصل كل فضيلة، والدين المسيحي هو السبيل الأوحى لكي تعود روما الى علياء مجدها.

المبحث الثالث: السلام الابدي وحتمية الصراع.

يذهب القديس أوغسطين الى القول ان الانسان مذ ان تمرد على الله في الملكوت الأعلى، قد حكم على نفسه بالعيش في الويلات والعذابات الدنيوية، هذه الويلات قد جسدها الله على البشر على شكل أنظمة الحكم في المدينة الأرضية وما فيها من الاكراهات الزمنية، كالرق والعبودية والحروب والصراعات، ولعل هذه الأخيرة هي اشد أنواع الويلات الزمنية التي اصابته الانسان منذ وقوعه في الخطيئة الكبرى، ونزوله الى الملكوت الأسفل (الأرض). الا ان القديس أوغسطين لا يرى بأن الحرب شر بمطلقها، ما دامت كل الشعوب ومصائرنا تنضوي تحت العناية الالهية. فأين يتمظهر جانب الخيرية للحرب في نظر القديس أوغسطين؟ أو بعبارة أخرى اين يكمن الجانب الأخلاقي للحرب والصراع من خلال التفكير الأوغسطيني؟

أولاً: تأصيل القديس أوغسطين لفكرة الصراع

دعت المسيحية منذ بداياتها الى السلم ونشر تعاليمه وضبط النفس ونبذ الخلاف، فالدين المسيحي يمثل "التآخي في الله، والتضامن الإنساني، والتآزر الاجتماعي"⁽¹⁾، وذلك لما يحمله من الاخلاقيات السامية، التي تمثل أغلبها في عدم رد الشرور بالشرور، "وأن يعرض الخد الأيمن للصفع بعد الخد الايسر، وبإعطاء الستة لمن يسأل الخمسة"⁽²⁾. الا ان كل هذه الاخلاقيات لم تكن تعني ان يقف المؤمن مكتوف اليدين في مجابهة الخطر؛ بل عليه ان ينبري الى الدفاع عن الدولة وعن تعاليم دينه، لان هذا كله ينضوي تحت تعاليم الله، والخطر قد يكون خارجياً كالغارات الأجنبية، وقد يكون داخلياً كالفتن والهرطقات، لذلك سنجد أن القديس أوغسطين قد اعتمد على دراساته التاريخية وعلى الكتاب المقدس، لأجل التأسيس لفكرة الحرب والصراع للوصول الى السلام، وكذلك سنجده يأخذ مبرراته من التجربة المعيشة له في ضل حالة الحرب والصراع التي تعيشها الإمبراطورية الرومانية في عهده.

(1) - محمد البشير شنيقي: أضواء على تاريخ الجزائر القديم بحوث ودراسات، (دار الحكمة، الجزائر، دط، 2003)، ص: 177.

(2) - يوسف كرم، مرجع سابق، ص: 50.

يرى القديس أوغسطين ان الله يبقى حاضرا في حياة الإنسان بعنايته وشرائعه الأخلاقية، خلافا لآلهة الرومان التي تركت خدامها دون قوانين في ظلام، وهم لا يباليون بتنظيم حياة الشعوب سكان المدن، وضبط أخلاقهم حتى لا تصيبهم الويلات، بل إن الالهة الرومانية قد ساهمت في دحر النظم الأخلاقية الفاضلة في حياة خدامها على عكس الله الذي يسير حياة البشر ويأمرهم بالأخلاقيات الفاضلة ف "الله الواحد الحق يرتب الأمور ويدبرها كما يشاء، فهل هي غير عادلة أسباب سلوكه ذاك لكونها خفية؟"⁽¹⁾.

ما تعيشه الإمبراطورية الرومانية من حروب وصراعات جعل القديس أوغسطين يهتم بالأسباب التي أدت إلى تلك الصراعات وعلاقتها بالإلهة، والأسباب الإنسانية والأخلاقية، ومن أبرز ما توصل إليه هو أن الله تنازل وشجع نمو الإمبراطورية الرومانية، وأفاض خيراته على الأبرار والأشرار خلال الحرب الطاحنة، ففوضهم لمعاقبة الشعوب الأخرى وذلك لأن "الله أراد أن يقيم مملكة الغرب الأخيرة الأشهر بعظمتها وقدرتها، ولكي يعاقب جريمة شعوب عديدة"⁽²⁾. وبهذا نجد أن القديس أوغسطين يذهب إلى أن الله قد سن الحرب والصراع على خلقه ليس ظلما منه، وإنما ضرورة حتمية فرضتها الخطيئة الكبرى، شأنها شأن باقي الولايات الزمنية، فالجرب انما هي وسيلة للإصلاح يقول القديس أوغسطين: "العناية الإلهية التي تتخذ الحرب سلاحا للإصلاح وسحقا للفساد البشري، وإذ تختبر بتلك الضبقات النفوس البارة والصديقة تؤهلها- بعد الامتحان- إلى مصير أفضل"⁽³⁾، والله يتدخل في الصراع فهو "الحكم في الحرب، يحدد لها بداية واستمرارية وغاية عندما يرى أنه من الضروري أن يصحح مسار الجنس البشري أو يؤدبه"⁽⁴⁾، وقد شرع القديس أوغسطين للحرب بناءً على تعاليم الكتاب المقدس؛ فالكهنة والقساوسة كانوا يسيرون مع الجنود ويشجعونهم بكلمات تساعد في القتال، ويقولون لهم: "لا تهربوا ولا تخافوا منهم، الرب الهكم

(1)- القديس أوغسطين، مدينة الله، ج 1، مرجع سابق، ص: 263.

(2)- المصدر نفسه، ص: 246.

(3)- المصدر نفسه، ص: 10.

(4)- المصدر نفسه، ص: 355.

السائر امامكم هو يحارب معكم"⁽¹⁾. فحريكم هذه يباركها الرب، وما على الجندي سوى الطاعة والخضوع " ولا يجوز له قط ان يعصي الأوامر والا وقع في خطيئة التمرد. فالإثم في الحرب لا يقع على الجندي بل على القائد الذي دعى إليها"⁽²⁾. فالله وحده من يحدد للحرب أسباب بدايتها وأسباب نهايتها وعلى من تدور رحاها.

يدعو القديس أوغسطين الى أنواع كثيرة من أنواع الصراع والحرب فمثلا " حق تأييد العدالة بالقوة"⁽³⁾، وكذلك تكون " الحرب مشروعة متى كانت الوسيلة والوحيدة لصيانة الحقوق المهددة"⁽⁴⁾، لأن "المدينة المعتدى عليها لها كل الحق في المقاومة، فليس يؤدي الامتناع عن المقاومة الا الى انتصار الأشرار، وهو نكبة خلقية، وإغراء لهم بالتمادي، وفتنة للآخرين، بينما تكف المقاومة شرهم وتردهم الى العدالة"⁽⁵⁾، ان الحرب في هذه الحالة مشروعة مادامت تهدف الى السلم وصيانة القيم الاجتماعية والفضائل الأخلاقية كالعدالة، وكذا للسهر على ان تحيا الأجيال القادمة في سلام وكرامة وحرية.

يشير القديس أوغسطين الى أنواع أخرى من الصراع الواجب استعمال القوة والعنف فيها، وهذا النوع تمثله الصراعات الداخلية التي تنجم عن التمردات الصادرة عن غياب العدالة والتعقل بين الناس، وسيادة العنف والظلم، ولقد حدث مثل هذا الصراع "لما أراد الاعيان أن يستبعدوا الشعب، تصرفوا كالمملوك بحياة المواطن وشخصه، فطردوه من حقله، واستبدوا به وبكل ماله، اذ ذاك فرغ صبر عامة الشعب لما لقي من عنف وظلم واستغلال، ولاسيما وقد زج تحت ثقل الضرائب وتعسف المليشيات، فانسحبت عامة الشعب بسلاحها على الجبل المقدس"⁽⁶⁾، وقد نجم بعد ذلك خلافات وصراعات طويلة الى ان " وضعت الحرب وحدها حدا لتلك الخلافات والمعارك"⁽⁷⁾. وهنا بالضبط

(1)- ليلي حسن سعد الدين: أديان مقارنة-ولتجدنهم احرض الناس على حياة (دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، دط، 1985)، ص: 94.

(2)- علي زيعور: أوغسطينوس، مرجع سابق، ص: 235.

(3)- يوسف كرم، مرجع سابق، ص: 51.

(4)- المرجع نفسه، ص: 51.

(5)- المرجع نفسه، ص: 51.

(6)- القديس أوغسطين: مدينة الله، ج 1، مصدر سابق، ص: 85.

(7)- المصدر نفسه، ص: 86.

نجد القديس أوغسطين يجسد منظوره بالنسبة الى حق استعمال القوة ضد المتمردين ولهراطقة والمنشقين سواء على الدولة أو الكنيسة، وذلك لأجل الوصول الى السلام الداخلي في المجتمع، هذا السلام الذي تنشده كل حضارة من خلال تأسيسها لتلك التجمعات الحضارية. ويصر القديس أوغسطين بضرورة الضرب بيد من حديد في حال حدوث أي نوع من هذه التمردات في البلاد وهو ما قام به في حربه ضد الدوناتيين والدواريين*.

ثانيا: الحرب ضد الدوناتية تجسيدا لفكرة الصراع

بدأ الصراع بين القديس أوغسطين والدوناتيين؛ لما دعى الإمبراطور قسطنطين زعماء الكنائس من كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية، الى اجتماع في مدينة آرل سنة 314م، من أجل ان يحصل منهم على ضمانات اشتمل وأمتن لسلامة الدولة، مقابل اعتناقه المسيحية. وقد تمخض عن هذا الاجتماع " الصيغة النهائية لدمج الكنيسة في الدولة وتجنيد مبادئها ورجالها لدعم السلطة، وتمتين اللحمة بين الإمبراطورية والشعوب الخاضعة. كل ذلك ضمن وحدة الكنيسة والمذهب، وجاء في تقارير ذلك المجلس بخصوص قضية فرار الجنود.... إن كل جندي مسيحي يرمي بسلاحه يطرد من المسيحية"⁽¹⁾، هذا البند الاخير من القرار فيما يخص الجنود الهاريين، لم يلقي قبولا من الكنيسة النوميديية وخاصة اتباع دوناتوس الكبير*، واعتبروها خيانة كبرى، وهكذا "نتج عن رفض الدوناتيين لقرارات آرل ان قرر رجال السلطة الولائية بالاتفاق مع الكنيسة الرسمية بقرطاجة منع الدوناتيين من دخول الكنائس والاعتصام بها،

* الدوناتية: حركة دينية مسيحية ظهرت وازدهرت في القرنين الرابع والخامس في شمال افريقيا خلال الحكم الروماني، سميت نسبة الى مؤسسها دوناتوس الكبير، تقوم هذه الحركة على مخالفة الكنيسة الكاثوليكية التي ترى بالثلاثية في حين كان الدوناتيين يدعون الى الوحدة. أما الدوارية أو الدائرية ويسمون في بعض الأحيان الدائريين، هي ثورة اجتماعية ظهرت في شمال افريقيا ابان الاحتلال الروماني لها، ظهرت في القرنين الثالث والرابع ميلادية، وتشكلت هذه الثورة من الفقراء والمعلمين والمملوكين الذين سلبت واغتصبت منهم أراضيهم الفلاحية. فكانوا في البداية يشكلون جماعات تغير على مخازن القمح الا انها سرعان ما تطورت خاصة مع اتحادها مع الدوناتية..... ينظر: محمد محي الدين المشرفي: أفريقيا الشمالية في العصر القديم، (دار الكتب العربية، لبنان، 4، 1969)، ص: 169.

(1)- محمد البشير شنيقي، مرجع سابق، ص: 180.

* يسمى دونا أو دونا الكبير وباللاتينية دوناتوس الكبير: ولد في القرن الثالث للميلاد في (نقرين) ولاية تبسة في الجزائر، يعتبر من الزعماء البرابرة الذين واجهوا الرومان بكل ما أوتي من علم وقوة، وهو من اهم المدافعين عن المسيحية في الوسط الأمازيغي، فهو قس وراهب بربري، صار بعد ذلك اسقفا وزعيما دينيا في شمال افريقيا، هو مؤسس مذهب الدوناتية، له مؤلفات "منها الروح القدس"، مثل الجانب الروحي للثورة ضد الاحتلال الروماني. توفي حوالي 335م... ينظر: محمد البشير شنيقي، الدوناتية وثورة الريفيين خلال القرن الرابع، (مجلة الاصاله، العدد 60، 1978)، ص: 30.

فهلك من الدوناتيين خلق كثير وهو ما زاد في تعميق جذور الخلاف⁽¹⁾ وردَّ الدوناتيين بدورهم، اذ قاموا بتكفير الكنيسة الكاثوليكية الرسمية "واعتبروها كنيسة الكفار الشياطين، وان كنيستهم كنيسة الاطهار القديسين وانه على من ينضم اليهم من الكاثوليك ان يطهر ويعاد إدخاله الى المسيحية من جديد"⁽²⁾. هذا من الناحية الدينية أما من الناحية السياسية والاجتماعية، فقد مثل هذه الثورة ما يسمى بالحركة الدوارية؛ حيث شهدت هذه الأخيرة حروباً طاحنة وطويلة مع الإمبراطورية الرومانية. واصل الصراع ان رجال الاقطاع الرومانيين قد مارسوا استغلالاً بشعاً على ملاك الأراضي الخصبه والبساتين، فنهبوا ممتلكاتهم واراضيتهم لصالح مصالحهم الشخصية، باسم الكنيسة والامبراطورية الرومانية، مما أدى الى تزايد الفقر والخوف والجوع بين فراد الطبقة العاملة والمضطهدة، بدأت هذه الحركة في أولها على شكل سرقات طفيفة من مخازن المحاصيل من طرف العمال فيها، الا ان اعداد السراق بدأ يتزايد ليشكل جماعات كثيرة، ولتتوحد في الأخير على شكل حركة ثورية منظمة، ومما زاد في قوتها هو تبنيها من طرف الكنيسة الدوناتية، لتكون لها دعامة دينية روحية، بالإضافة الى الدعامة الشعبية والمادية، "أحس القديس أوغسطين بالخطر بحكم انه ممثل الكنيسة في شمال أفريقيا وبحكم قربه من السلطات اوغل قلوب الحكام على هذه الحركة، مما أدى الى دحرها وإبادتها في النهاية بعد فيضانات من الدماء"⁽³⁾. لقد مثل (دونا توس) الكبير الد أعداء القديس أوغسطين والسلطة الرومانية، ما جعله يكتب عديد لكتابات في هذا الشأن، ولعل أهمها "مزمر الى حزب دونا توس"، وهو جملة من المقالات يعتب فيها القديس أوغسطين الدوناتيين على ما أوصلوا اليه إخوانهم من تقتيل وحروب وخروج عن الحكام، وقد ورد في هذا المزمور قول القديس أوغسطين: " ما أكثر الذين عندكم اليوم ممن يزعمونكم ومع ذلك لم تفصلوهم ابدا عن رحمتكم انا لا اتكلم عن الذنوب التي يمكن ان تنكروها ولكن عن الضربات والحرائق وجرائم القتل التي يقتربها ذويكم في وضح النهار ومع ذلك فإنكم تتحملونهم اما خطأ واما خوفاً"⁽⁴⁾.

(1)- محمد البشير شنيقي، مرجع سابق، ص: 180.

(2)- المرجع نفسه، ص: 180.

(3)- محمد محبي الدين المشرفي: أفريقيا الشمالية في العصر القديم، مرجع سابق، ص ص: 97-98.

(4)- القديس أوغسطين: مزمر ضد حزب دوناتوس، تر: محمد مبكر، (كلية الآداب، طرابلس، ط1، 2001)، ص: 276.

ولا يقبل القديس أوغسطين بالحرب على إطلاقها؛ بل نجده يذهب إلى أن الحرب ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي اختبار للأبرار، وتهدف إلى تحقيق الإصلاح وطمس الفساد، فهو غالبا ما يرفض الحروب التي تهدف إلى التسلط والظلم، لأنه يرى أن "تقاتل الأمم وتسلط الواحدة على الأخرى والتوسع على حساب الآخر بنظر الأشرار سعادة، أما في نظر الصالحين فهو حاجة أليمة، ويزداد الألم عندما يصبح الظالمون أسيادا على المظلومين"⁽¹⁾، كما يرفض الحروب والصراعات التي "يحدوها حب الفتوح والحقد والانتقام"⁽²⁾ بل يجب تجنبها والاعراض عنها فالديانة المسيحية تدعو دوما إلى التسامح والسلام إلا إذا اقتضت الضرورة سفك الدماء لأجل حفظ السلام.

وفي خلاصة القول، إن القديس أوغسطين مؤمن كل الإيمان أنه ما من وسيلة للوصول إلى السلام الأبدي إلا عن طريق الصراع بين الأمم، أو في الأمة الواحدة، أو حتى بين المرء ونفسه، فهو كما سبق الذكر، يرى بأن الروح تشتتهي ضد الجسد وأن الجسد يشتهي ضد الروح هو الآخر، وأنه لن ينتهي هذا الصراع إلا بأن يقمع أحدهما الآخر ويعيش في سلام، ومظاهر الصراع بدت منذ أن خلق الله الكون فمن الصراع بين آدم وابلis في الملكوت الأعلى، إلى صراع قابيل وهابيل في الأرض وغيرها من الصراعات يمثلها الصراع الأبدي بين الخير والشر والنور والظلمة. وبالرغم من أن المسيحية دين حب وعفة وسلام، إلا أنها أيضا تبيح الحرب والقتل عند الضرورة الملحة وذلك لأجل أغراض أخلاقية بغية دحر الفساد، أو بإرادة العناية الإلهية التي تسلط أمة على أمة لعقابها، كما أن العنف والقتل مباحان إذا ما تعلق الأمر بسلام الدولة الداخلي، وصلاح الدين، فتستعمل قوة السلاح ضد الهراطقة والمتمردين، وهو ما جسده القديس أوغسطين ضد الدوناتيين والدواريين، والقديس أوغسطين لا يؤيد الحرب بالمطلق بل نجده يمقت تلك الحروب التي تكون لأجل الانتقام أو تكون مصحوبة بالظلم والاضطهاد، ليبين في الأخير أن خيرية الحرب والصراع تتمثل في أنها فريضة ربانية، وسبيل العالم المحتوم للوصول إلى السلام الأبدي.

(1) - القديس أوغسطين: مدينة الله، ج 1، مرجع سابق، ص: 355.

(2) - يوسف كرم: مرجع سابق، ص: 51.

وفي الأخير يمكن القول ان القديس أوغسطين قد تعمق كل العمق في تاريخ الحضارات وخاصة الحضارة الرومانية، ليصل في نهاية دراسته الى جملة من النتائج توضح العوامل الحقيقية وراء قيام الحضارة الرومانية وسقوطها. فالحضارة الرومانية في اوج عطائها وشموحها لم تكن حضارة عدد وعدة فقط، وليس السلاح والجند هم الذين بنوا لها عمادها، وانما يرى القديس أوغسطين ان هذا هو الظاهر فقط اما العامل الحقيقي فهو عامل روحي خفي يتمثل في الاخلاق، الاخلاق التي ساد بها الشعب الروماني على باقي الشعوب التي لا تملكها، ومن جملة الاخلاق التي ركز عليها القديس أوغسطين فضيلة العدالة وحب المجد والعظمة والسلطان، والحرية التي كان يتوق لها كل روماني، وقد اجتمعت كل هذه الخصال تحت حكم الضمير الذي كان يحكم به الروماني وفقا للعدل. لكن بالرغم من كل هذا رأى القديس أوغسطين أن هذه الحضارة وان وصلت الى علياء مجدها، وتحلت بكل تلك الخصال فإنها لا بد ان تنزل في يوم من الأيام، لأنها تحمل بذور فنائها في ذاتها، وذلك انما لم تكن تستند على دين صحيح، وهنا نجد اننا نتقل الى أسباب السقوط ليلخصها أيضا في غياب الاخلاق والفضائل؛ فساد ديني أدى الى فساد أخلاقي ثم الى فساد على كافة الأصعدة الأخرى، ليغيب العدل ويحل الظلم، ويزول المجد وتحل الرذيلة، إلا ان القديس أوغسطين لم يتوقف عند هذا بل دعى الرومانيين لإنقاذ حضارتهم، وذلك بالعودة الى الله الواحد الحق، فليس الله هو سبب خراب روما كما زعم الوثنيين وإنما هو سبب خلاصها.

كما نجد القديس أوغسطين يبين ان الصراع هو سبيل البشرية الوحيد للسلام الابدي، اذ كتبه العناية الإلهية على البشر بسبب الخطيئة الأولى مثله مثل الولايات الزمنية الأخرى، إلا انه لا يبيح الصراعات على اطلاقها، فنجده يعادي تلك التي تكون للانتقام أو التوسع والاضطهاد، فالحرب مسموحة في حدود الضرورة فقط.

الخاتمة

وفي خاتمة هذا البحث الذي تناول إشكالية التأسيس الأخلاقي لحضارة عند القديس أوغسطين نصل الى جملة من النتائج نرى انها مفاتيح لهذا البحث ونوجز هذه النتائج فيما يلي:

كان الفكر الأخلاقي عند القديس أوغسطين، متشعبا تشعب مصادره المعرفية، وإن اتّسم بالصبغة الدينية في أغلب أحكامه، لذلك نجده في تفسيره لفكرة الخطيئة وشمولها للبشر، يقول بمفهوم وحدة الإنسانية، الذي اخذه بالأساس من الكتاب المقدس، ثم من بعض الفلاسفة المتقدمين عليه، ليبين في النهاية ان الخطيئة الانسانية ترجع في الأساس الى المصدر الذي خلق منه البشر وهو العدم فطبيعة الانسان العدمية ميالة الى الخطأ اما بالنسبة لشموليتها لكافة البشر فتعود الى ان لبشر وحدة واحدة. ثم إن تفسيره لفكرة الشر، قد اعتمدت بدورها على تلك المصادر؛ فالشر عند القديس أوغسطين ليس جوهرًا في الخليقة، وإنما يرجع الى الإرادة البشرية، فالخير عنده لمن اعتاده والشر لمن أراد.

تميز الفكر السياسي عند القديس أوغسطين بالدقة والشمولية، حيث تطرق الى فكرة الدولة بكل نواحيها، بداية من نشأتها، وصولا الى مصادر التشريع فيها، مرورًا بمقوماتها، فالدولة تنشأ بنشوء المجتمع، والذي يتكون من الشعب، وهذا الأخير يعبر عنه بحشد من الناس يشتركون في حق معين، هذا الحق عبّر عنه القديس أوغسطين بالعدالة، فالدولة التي لا تحكم بالعدل ليست دولة في نظره، اما بالنسبة لمقومات الدولة، فقد أشار القديس أوغسطين الى اغلب الجوانب التي يمكن ان تحافظ على تماسك المجتمع، وتالف افراده، فبدأ بالعدالة، التي عبّر عنها بانها إعطاء كل ذي حق حقه. ثم انتقل الى القوانين فقسمها الى نوعين قوانين الهية وقوانين وضعية. ثم تطرق الى فكرة اللغة التي مثلت عنده أداة تبادل الأفكار بين افراد المجتمع، اذ ان غيابها من المجتمع يسيره مجموعة من الحيوانات، كما نجده قد تطرق الى الملكية والتملك، والرق والعبودية؛ وهذان الاخيران بالنسبة اليه شكلان من اشكال الولايات الزمنية، التي فرضتها الخطيئة الأولى. وقد قسم القديس أوغسطين مصادر السلطة في الدولة الى نوعين وذلك بحسب

المشرع، فالله مصدر كل السلطات ومصدر كل تشريع، وهو الذي يمثل التشريع الإلهي، وهناك تشريعات بشرية مصدرها الانسان وكلا بحسب إرادة الله، وفي الدولة تمثل الكنيسة مصدر التشريع الإلهي، وتمثل السلطة مصدر التشريع البشري، ويصر القديس أوغسطين على ضرورة ان تكون الاحكام التشريعية مشاعا بينهما، على ان لا تمس احدهما مصلحة الأخرى، بل يجب ان تقوم بهما علاقة التعايش السلمي، فتحمي كلا منهما الأخرى.

أما من ناحية العلاقة بين الفكر الأخلاقي والحضارة، فقد بين القديس أوغسطين كيف ساهت الاخلاق في قيام الحضارة وفي سقوطها، وقد أقام دراسته على الحضارة الرومانية التي كانت تمثل عنده مثالا للحضارة العالمية، وكان هدف دراسته تبرئة الدين المسيحي بعد الاتهامات التي وجهها له الوثنيين الرومان، بأنه سبب سقوط الحضارة الرومانية، ليعين في نهاية دراسته أسباب سقوطها، ويرأ الدين المسيحي، وفي خضم ذلك أشار الى أسباب ازدهارها وتطورها، ومن أسباب الازدهار التي أشار اليها، سيادة الاخلاق التي تمثل في تطبيق العدالة وفقا لحكم الضمير كما يحكم القانون العادل، بالإضافة الى حب الحرية والعظمة والمجد العالمي. كما بين القديس أوغسطين أن هذه الحضارة لا بد زائلة؛ فهي تحمل في ذاتها بذور فنائها، مثلها مثل الانسان الذي أسسها، فهي حضارة لا تتركز على دين صحيح، الذي يمثله الدين المسيحي.

أما أسباب سقوطها فراجع الى غياب تلك الاخلاق واضمحلالها، وهذا راجع لعدة أسباب أشار اليها القديس أوغسطين منها، الازدهار المادي والأمني مما جعل شهوة حب جمع المال تسود على قلوب الرومانيين، ومن ثم ميلهم الى المتعة والبذخ والمجون. ثم ان العدالة الرومانية قد حادت عن مفهومها الأصلي فأصبحت آلة في يد أصحاب النفوذ والسلطة، وخاصة في عهد القناصل الاقطاعيين، مما أدى الى شيوع الظلم والجور، وذلك ما افرز كثيرا من التمردات والثورات من طرف الطبقة المضطهدة. ومن الأسباب التي ركز عليها أيضا، فساد الآلهة الرومانية التي ساهمت في نشر الفساد الأخلاقي بين شباب روما، وبذلك خمدت نار حب المجد والعظمة والسلطان فيهم، فلم يعد الشباب الروماني يتنافس على الفضيلة كسابق عهده، بل على النقيض من ذلك، فقد أصبحوا يتنافسون على العهر والدعارة وتحصيل أكبر قدر من الخليلات، ويتنافسون على طرق الاخلال بالحياء العام في المسارح

والساحات العامة، وكلما دعى داعي الحرب سارعوا الى تقديم القرابات الى الآلهة لتساعدهم ويركنون الى دعارتهم وشهوتهم.

ارتكز الفكر الأوغسطيني على فكرة الصراع كسبيل البشرية الحتمي الى تحقيق السلام الابدي، والصراع يكون على عدة اشكال، فيكون بين الدول والحضارات، كما يكون بين افراد الحضارة الواحدة، بل وبين الانسان ونفسه، والصراع قديم قدم البشرية ذاتها، فقد ابتداء من آدم وابليس في الملكوت الأعلى، لينتقل بين قايين وهابيل في الأرض ثم يبقى في البشرية على مر التاريخ والازمان، وسيبقى كذلك الى غاية الدينونة الأخيرة. وبالرغم من كون الديانة المسيحية دين حب وتسامح وسلام، فهي كذلك تبيح الحرب إذا اقتضت الضرورة، فهي تبيح القتل ان لزم الامر لحفظ سلام الدولة سواء الخارجي في حالة الغزو، او الداخلي في حالة التمرد او الهرطقة، وهو ما جسده القديس أوغسطين في حربه ضد الحركة الدوناتيية، كما ان العناية الإلهية قد تسلط حضارة على أخرى لتأديها كما حدث مع الحضارة الرومانية، التي رأى القديس أوغسطين ان الله قد سلطها على باقي الحضارات لتعاقبها. ولا يبيح القديس أوغسطين الحرب على اطلاقها بل هو يمتت تلك الحروب التي تكون لأجل الفتح والانتقام والتجبر فقط، وبهذا بين القديس أوغسطين ان الصراع هو السبيل الأوحده الذي فرضته العناية الإلهية على البشرية لتحقيق السلام نتيجة للخطيئة الأولى.

وفي الاخير يصل القديس أوغسطين الى نتيجة عامة الا وهي ان الفساد الديني أدى الى الفساد الأخلاقي والى الفساد السياسي، وهذا الفساد في الاخلاق والسياسة سيؤدي حتما الى سقوط الحضارة، أي ان العامل الأساس في قيام الحضارة وسقوطها هو العامل الأخلاقي.

القديس أوغسطين فيلسوف جزائري، وأسقف مسيحي، ارتقت كثير من أفكاره الى مصاف النظريات العالمية، لذلك نجد كثير من المعاهد الغربية قد التفتت الى كتاباته وصارت تدرس في المعاهد العالمية، فهو صاحب نسق فلسفي شامل ومحكم، كتب في الاخلاق والسياسة، والتاريخ والحضارة، وفي الحب وفي النفس والسعادة وغيرها من

المفاهيم الفلسفية، موقفاً في كافة كتاباته بين العقل والنقل، لذلك ينبغي ان يفرد له المزيد من الاهتمام في مخابر البحث، خاصة في الدراسات الشمال افريقية، وبالأخص في الجزائر، ولهذا يمكن ان نخرج في خاتمة هذا البحث بالتوصيات التالية:

● الحقبة الزمنية التي ينتمي اليها القديس أوغسطين والمثلة في العصور الوسطى، هي حقبة زمنية غامضة في تاريخ الشمال الافريقي، وفي التاريخ الجزائري بالخصوص، فهي حقبة الكتابات فيها قليلة، ومثل شخصية القديس أوغسطين يمكن ان يعتبر أحد البوابات الهامة للولوج الى التاريخ الجزائري في العهد الروماني، وتاريخ أعلامه في تلك الفترة. لذلك يجدر تسليط اهتمام أكثر على دراسة هاته الشخصية في المستقبل.

● انتماء القديس أوغسطين الى وطننا الجزائر، يحتم علينا الاهتمام أكثر بأحد أعظم الشخصيات، بل الفلاسفة الجزائريين بغض النظر عن الانتماء الديني والعقائدي، فعوض ان يقال ان القديس أوغسطين فيلسوف مسيحي، ويدرس في المعاهد الغربية، الاجدر ان يقال الفيلسوف الجزائري ويدرس في المعاهد الجزائرية؟ وتدرس فلسفته في كثير من المعاهد، مثل التاريخ وعلم النفس وعلوم التربية، التي تحدث عنها كثيراً في كتاب الاعترافات. والتساؤلات التي نخرج بها من هذا البحث هي: هل أثر الفكر الأوغسطيني في الفكر الجزائري؟ والى أي مدى يعتر القديس أوغسطين جزائرياً في نظر الفكر الجزائري؟

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- 1- الكتاب المقدس
- 2- أوغسطينوس أوروليوس: الاعترافات، تر: الخوري يوحنا الحلو، (دار المشرق، بيروت، ط4، 1991).
- 3- أوغسطينوس أوروليوس: الاعترافات، تر: برتي شاكر، (دار النشر الأسقفية، القاهرة، ط5، 2011).
- 4- أوغسطينوس أوروليوس: خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، تر: الخوري يوحنا الحلو، (دار المشرق، بيروت، ط7، 2004).
- 5- أوغسطينوس أوروليوس: محاوره المعلم، تر: حسن حنفي (نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط)، (مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ط2، 1978).
- 6- أوغسطينوس أوروليوس: مدينة الله، تر: الخوري يوحنا الحلو، (دار المشرق، بيروت، ط2، 2006).
- 7- أوغسطينوس أوروليوس: مزمور ضد حزب دوناتوس، تر: محمد المبكر، (كلية الآداب، طرابلس، ط1، 2001).

ثانياً: المراجع

- 8- إبراهيم خميس إبراهيم و(آخرون): معالم التاريخ الأوربي الوسيط، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، 2004).
- 9- ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، (دار يعرب، دمشق، ط1، 2004).
- 10- أبو الحسن علي ابن محمد ابن الاثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: ابي الفداء عبد الله القاضي، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987).
- 11- أبو الفداء الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، (مكتبة المعارف، بيروت، دط، 1990).

- 12- أبو زهرة أحمد: محاضرات في النصرانية، (دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1961).
- 13- اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، مر: فؤاد زكريا، (المطبعة الثقافية، مصر، دط، 1971).
- 14- افلاطون: الجمهورية، تر: حنا خباز، (دار القلم، لبنان، ط6، 2000).
- 15- إمام عبد الفتاح إمام: الطاغية، (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1984).
- 16- بيومي محمد احمد: تاريخ التفكير الاجتماعي، (دار المعارف العالمية، القاهرة، دط، 2003).
- 17- جيبون ادوارد: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، تر: محمد علي أبو درة، مر: احمد نجيب الهامش، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ط2، 1997).
- 18- حسن سعد الدين ليلي: أديان مقارنة-ولتجدنهم احرض الناس على حياة (دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، دط، 1985).
- 19- الخشاب أحمد: التفكير الاجتماعي دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية، (دار النهضة، بيروت، دط، 1981).
- 20- الخصري زينب محمود: لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، (دار قباء القاهرة، دط، 1997).
- 21- ديورانت ويل: ابطال من التاريخ، تر: سامي الكعكي-سمير كرم، مر: عمر الايوي، (دار الكتاب العربي، لبنان، دط، دس).
- 22- ديورانت ويل: قصة الحضارة، تر: محمد بدران، (القاهرة 1972).
- 23- رشوان محمد مهران: تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، (دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 1998).
- 24- زيعور علي: الفلسفة في أوربا الوسيطة وعصري النهضة والإصلاح، (دار الحياة، بيروت، دط، 1998).
- 25- زيعور علي: أوغسطينوس، (دار اقرأ، بيروت، ط1، 1983).

- 26- سباين جورج: تطور الفكر السياسي، تر: حسن جلال العروسي، مراجعة وتقديم: محمد فتح الله الخطيب، (دار المعارف-مؤسسة فرانكلين، مصر-نيويورك، ط2، 1969).
- 27- شنيقي محمد البشير: أضواء على تاريخ الجزائر القديم بحوث ودراسات، (دار الحكمة، الجزائر، دط، 2003).
- 28- شنيقي محمد البشير: الدوناتية وثورة الريفيين خلال القرن الرابع، (مجلة الاصاله، العدد 60، 1978).
- 29- عاشور السيد عبد الفتاح: حضارة ونظم اوروبا في العصور الوسطى، (دار النهضة، بيروت، دط، 1976).
- 30- عبد الباقي زيدان: التفكير الاجتماعي نشأته وتطوره، (دار السعادة، مصر، ط4، 2004).
- 31- عبد الرحمان عبد الله: تطور الفكر الاجتماعي، (دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، دط، 1999).
- 32- الفوال صلاح مصطفى: سيسيولوجيا الحضارات القديمة، (دار الفكر العربي، القاهرة، دط، 1982).
- 33- كرم يوسف: تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، دط، 2012).
- 34- كريم زيد عباس: اسبينوزا الفلسفة الأخلاقية، اشراف: احمد عبد الحليم عطية، (دار التنوير، بيروت، دط، 2008).
- 35- ليوشتراوس، جوزيف كوريسى: تاريخ الفلسفة السياسية، تر: محمود سيد احمد، مر: إمام عبد الفتاح إمام، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، دط، 2005).
- 36- محمد نصر مهنا: علم السياسة، (دار غريب، القاهرة، دط، دس).
- 37- محمد نصر مهنا: في تاريخ الأفكار السياسية والتنظير للسلطة؛ (المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، دط، 1999).
- 38- محمود سعيد عمران: النظم السياسية عبر العصور، (دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1999).

- 39- محمود سعيد عمران: معالم تاريخ اوربا في العصور الوسطى، (دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، دس).
- 40- مزواد نسيبة: فلسفة الحضارة عند القديس أوغسطين، (رسالة لنيل شهادة ماجستير في فلسفة الحضارة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011-2012).
- 41- المشرفي محمد محي الدين: أفريقيا الشمالية في العصر القديم، (دار الكتب العربية، لبنان، ط4، 1969).
- 42- الميناوي احمد: جمهورية افلاطون المدينة الفاضلة كما تصورها فيلسوف الفلاسفة، (دار الكتاب العربي، حلب، ط1، 2010).
- 43- النشار مصطفى: تطور الفكر السياسي القديم من صولون حتى ابن خلدون، (دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1999).
- 44- يعقوب هجو الشيخ موسى: الخطيئة والكفارة في النصرانية والإسلام، (رسالة ماجستير في مقارنة الأديان، جامعة ام درمان الإسلامية، كلية الدعوة، 2009).

ثالثا: الموسوعات والمعاجم

- 45- بدوي عبد الرحمان: موسوعة الفلسفة، (المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 1984).
- 46- صليبا جميل: المعجم الفلسفي، (دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، 1982).
- 47- طرايشي جورج: معجم الفلاسفة، (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 2006).

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
أ.	مقدمة
.5	الفصل الأول: الاخلاق عند القديس أوغسطين
.6	المبحث الأول: نبذة عن حياة القديس أوغسطين
.14	المبحث الثاني: الخطيئة واصل الشر
.23	المبحث الثالث: الفضيلة عند القديس أوغسطين
.30	الفصل الثاني: الفكر السياسي عند القديس أوغسطين
.32	المبحث الأول: نشأة الدولة
.38	المبحث الثاني: مقومات الدولة
.45	المبحث الثالث: مصادر السلطة في الدولة
.52	الفصل الثالث: القيام والسقوط الحضاري
.53	المبحث الأول: أسباب ازدهار الحضارة
.62	المبحث الثاني: أسباب سقوط الحضارة
.70	المبحث الثالث: السلام الابدي وحتمية الصراع
.77	خاتمة
.81	قائمة المصادر والمراجع
.84	فهرس الموضوعات

ملخص

يعتبر هذا العمل كمحاولة للتأصيل الفلسفي لفكرة القديس أوغسطين حول علاقة المنظومة الأخلاقية وتأثيرها في قيام حضارة ما وسقوط أخرى؛ وذلك عند اعتماده للحضارة الرومانية كميدان دراسة. ولبلوغ الهدف المنشود تم تقسيم البحث مع ما يتناسب مع طبيعة الدراسة الى ثلاثة فصول، حيث تضمن الفصل الأول الإحاطة بأهم المفاهيم الأخلاقية في الفكر الأوغسطيني، أم الفصل الثاني فقد حوى أهم الأفكار السياسية عنده، أم الفصل الأخير فقد كان كتطبيق للفصلين الأول والثاني على الحضارة الرومانية، حيث ضُمن كيفية تأثير المنظومة الأخلاقية على قيام الحضارة الرومانية وسقوطها، بالإضافة الى طرح مبسط لفكرة الصراع كسبيل البشرية الحتمي للوصول الى السلام الابدي.

ومن خلال هذا العمل نستنتج اندماج المنظومة الأخلاقية مع كافة مجالات الحياة الإنسانية، وهذا ما جعل لها هذا الأثر الكبير في قيام الحضارات وسقوطها.

Résumé

Ce travail est considéré comme une tentative d'arrachement philosophique de l'idée de saint augustin autour de la relation du système éthique et son influence dont le fondement et la chute des civilisations, comme champs d'étude, on a choisi la civilisation romaine, et pour atteindre l'objectif on divers la recherche en trois chapitre en fonction de la nature de l'étude concernant le premier chapitre, in a abordé de les concepts éthiques les plus importants dans la pensée augustine.

Pour le deuxième chapitre on a parlé de ses idées politiques. Enfin le dernier chapitre, c'était la partie pratique des deux chapitres autour de la civilisation romaine, on a un comment le système éthique influence le fondement et la chute des civilisations, aussi une simple présentation de l'idée du conflit comme un chemin de la paix éternel.

A travers cette recherche, on déduit l'intégration du système éthique dans tous les domaines de la vie, ceci a influencé le fondement et la chute des civilisations.